أضواء وتأملات في سورة طه

تأليف

حنان لحام



المكتبة المكية

دار إيلاف

دار البشائر الإسلامية

أضواء وتأملات

في

سورة طه

تأليف

حنان لحام

دار إيلاف
بريطانيا

المكتبة المكية
السعودية

دار البشائر الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار إيلاف
هل - بريطانيا

EILAAF HOUSE
Science and Arts Publisher

278 / 282 Hessle Road , Hull Hu3 3EA , England , U . K .

يطلب الكتاب في المملكة العربية السعودية من :

المكتبة المكية

حي الهجرة - مكة المكرمة - السعودية - هاتف وفاكس : ٥٣٤٠٨٢٢

ويطلب في باقي الدول من :

دار البشائر الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص.ب : ٥٩٥٥ - ١٤



الإهـداء

إلى الذي شاركني همومي وأفراحي . .

ووقف إلى جانبي يدعمني

ويوحي إلي بأهمية ما أكتب . .

ويمنحني التقدير العملي الصامت لما أعمل .

إلى الإنسان الذي صبر على أخطائي

وتجاوز عن تقصيري راضياً . .

مستيقناً أنَّ ما عند الله خير وأبقى .

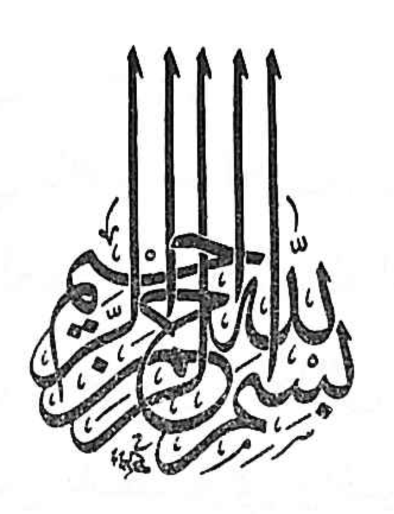
إلى رفيق العمر . .

زوجي العزيز: أبي عبد الرحمن . .

حنان اللّحام

ذو القعدة ١٤١٢هـ ـ أيار ١٩٩٢م

دمشق



الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي السورة	٧
١ ـ مطلع السورة (الآيات ١ ـ ٨)	١١
٢ ـ قصة موسى (الآيات ٩ ـ ٩٨)	١٩
٣ ـ مشهد من القيامة (الآيات ٩٩ ـ ١١٢)	٦٥
٤ ـ تعقيبات فيها تذكير بقصة آدم (الآيات ١١٣ ـ ١٢٧)	٧١
٥ ـ ختام السورة (الآيات ١٢٨ ـ ١٣٥)	٨١

● ● ●

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي السورة

ليس هذا تفسيراً أكتبه.. ولكنها نبضات قلب أشرقت عليه سورة طه ونفحته بعض عبيرها. إيه يا أمير المؤمنين.. يا ابن الخطاب.. أتذكر ما فعلته بك.

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾[1]..

وعمر الفاروق.. جبار الجاهلية.. يسمعها فتنكسر أغلال قلبه.. وتتهاوى السدود والجدران أمام شلال النور المتدفق مع «طه» إلى أغوار نفسه.. فتنجاب الظلمات.. ويتهاوى الظلم والجبروت.. وتنكشف حقيقة الله المحب لعباده.. الخالق لكل شيء.. أمام

(١) سورة الحشر: الآية ٢١.

ناظريه.. فيركع القلب ويسجد تائباً منيباً.. وتزغرد الآفاق لميلاد هذا العبقري..

يا براعم الإسلام.. أبعدوا كل العوائق أمام ﴿طه﴾.. واتركوها تكتسح قلوبكم.. يا شباب الإسلام.. أوصلوها إلى جبابرة الشرق والغرب..

فما أحوج العالم إلى فاروق جديد في كل مكان..

ليرفع عن الأرض لعنة الاستضعاف والاستكبار..

* * *

سورة طه.. لمسات حانية من رب ودود كريم.. يرحم عباده فيرسل لهم الهداية حتى لا يضلوا ويفتح لهم الأبواب ليستمتعوا بمناجاته فلا يشقوا.. إنها تسلية وأنس ودعم للدعاة.. ورسالة ود وحنوٍّ من رب العباد إلى الناس كافة ليفتحوا أعينهم ويبصروا الحقيقة قبل فوات الأوان.. آياتها تجول مع القلب البشري ليتأمل حلاوة الأنس بالله في الدنيا.

﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

ونعيم الآخرة للمؤمنين.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾.

وفي المقابل يرى بؤس المحرومين من ربهم في الدنيا.

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾.

وخيبتهم في الآخرة.

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

وتأتي قصة موسى لتشغل مساحة واسعة في السورة.. فهي نموذج وافٍ لعرض الفرق الشاسع بين الطرفين: من عاش في كنف الله.. ومن أعرض عن ذكر الله.

● ● ●

١ - مطلع السُّورة

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ .

(الآيات من ١ ــ ٨)

الأحرف: ﴿طه﴾: رمز يشع فيضفي على القارىء والسامع إحساساً مفعماً بالنور والطهر والحنو الإلهي. . هل الأحرف هي التي تلقي بهذه الظلال؟ إن الأحرف رمز وعنوان. . مثل اسم الإنسان. . وحين أكون على معرفة وثيقة بإنسان فإن ذكر اسمه يفرض علي إحساساً معيناً يتناسب مع شخصيته كما ترتسم صورتها في ذهني. . وهكذا يتدفق النور والسمو والحنان على قلبي حين أسمع عنوانها «طه».

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ :

يا رسول الله. . رفقاً بنفسك. . ولا تدع حب الناس والألم

لضلالهم يرهقك هكذا. . ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[1]. . إنما أنت منذر ومذكر. . وقد أديت الرسالة وبلغت الأمانة. . ولا بد أن يروا عاقبة اختيارهم.

ويا دعاة الإسلام. . امضوا في طريقكم واصبروا وصابروا. . فليس هذا الأذى الذي تكابدونه في الطريق إلاَّ الضريبة التي لا بد من دفعها حتى ينزاح الشقاء عن الجميع. . ويسعد الجميع. .

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلاَّ على جسر من التعب

«يؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط»[2].

ويا من جربتم كل شيء إلاَّ القرآن. . جربتم القومية فدمرتم العالم بالحروب العالمية. . وجربتم الشيوعية سبعين عاماً وأنتم تكابدون. . حتى رجعتم بخفي حنين تبحثون عن مخرج. . وجربتم. . وجربتم. . وما زلتم تجربون في هذا الإنسان المسكين. . اهدأوا واسمعوا. . فإن الرحمن يبسط لكم يديه. . متودداً مشفقاً. . ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾. .

وأنتم يا من تعذبون أنفسكم بالتنطع في الدين اربعوا على أنفسكم. . فإن الله لم يرسل آياته ليحكم عليكم بالأشغال الشاقة

(١) سورة الكهف: الآية ٦.
(٢) رواه مسلم.

﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.. وفرق كبير بين من يعذب نفسه بالغلو **بالعبادة**.. ومن استحوذت عليه حلاوة العبادة.. فرق كبير بين من زجر نفسه عن المعصية وهو يحلم بها وهجر التنعم بالحلال تعنتاً.. ومن تذوق لذة الحلال وتنعم به كي يتملى من كرم الله ونعمته عليه..

يا من صورتم الدين على أنه مجموعة من الزواجر والقيود.. يا من وسعتم دائرة الحرام حتى أصبحت حصاراً لا يطاق.. اربعوا على أنفسكم فإنكم مسؤولون أمام الله عن إرهاق الناس وتنفيرهم بغير حق.. أصيخوا السمع.. ها هو النداء الحبيب يمسح القلوب من التشنج والعناء ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

يا من تنوءون تحت الآصار والأثقال.. إن الله قد أرسل إليكم الهدى ليضع عنكم إصركم والأغلال التي كانت عليكم.

والسورة كلها خطاب للدعاة ـ بشكل خاص ـ ممثلين في شخص رسول الله ﷺ إمامهم وقدوتهم.. والله يناجيه ويمسح على قلبه ويمنحه زاد الطريق.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾:

الخشية هي الشعور بالخطر.. والخوف من سوء المصير.. وهؤلاء الذين يخافون ويتطلعون إلى مستقبل أفضل ويبذلون جهدهم في التخطيط للسلامة.. هؤلاء هم الذين يتذكرون وينتفعون بالقرآن.. وأما السادرون الغافلون.. فأولئك كالأنعام بل هم أضل.. وأما الخبثاء

المتهالكون على العاجلة لأنفسهم.. فأولئك هم المفسدون في الأرض.. شياطين الإنس والجن.. يخادعون الله والذين آمنوا: ـ بالشعارات البراقة ـ وما يخدعون إلاَّ أنفسهم.. فغداً ينكشف السراب.. وينزاح الضباب.. وتتساقط الأوهام.. وعندها يدركون ـ وبعد فوات الأوان ـ أنهم شغلوا بالفتات عن الوليمة الكبرى.. وبالبريق الزائف عن سلعة الله الغالية.. وهناك يقف الشيطان هازئاً متشفياً.. ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم.. وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي.. فلا تلوموني ولوموا أنفسكم...﴾[1].

يا أيها الإنسان.. احذر.. أمامك مطبات ومزالق.. وقد وضع الله لك هذه الآيات على الطريق.. علامات بينات.. مثل لوحات المرور غرست على جنباته لتحذرك المطبات والمنعطفات.. ألا ترى ما حل بالطائشين الذين سبقوك من قبل على هذا الطريق..؟! إن آثار الحوادث والصدام والتدهور ما زالت باقية.. ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها؟! فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور...﴾[2]. ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون؟!﴾[3].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.
(٢) سورة الحج: الآية ٤٥.
(٣) سورة الصافات: الآية ١٣٧.

إن من يخشى العواقب يتصبر ويدرس خطواته ويعتبر من تجارب السابقين.. ويسمع نصح المشفقين.. وإنما يتذكر أولوا الألباب.. وهؤلاء هم موضع حبه وعنايته.. وأهل رحمته ورعايته.. ومن أجلهم أنزل آياته.. سبحانه وتعالى.

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾:

وما قدروا الله حق قدره..

يا من تهشون وتبشون لكلام الرؤساء والملوك.. اسمعوا لكلام خالق الرؤساء والملوك..

يا من تستعبدهم أهواء الخلق وأوهامهم.. افتحوا عيونكم وقلوبكم لنداءات الخالق..

يا من ركنتم إلى الأرض واستحوذت عليكم سفاسف الدنيا.. ارفعوا أبصاركم إلى السموات العلى.. فمن هناك تمتد يد العلي العظيم.. الرحمن الرحيم.. كي تنتشلكم من هذا المستنقع الآسن.. وتعلو بكم إلى الملأ الأعلى.. إلى المقام الذي سجدت فيه الملائكة لمن خلق الله في أحسن تقويم.. فيا حسرة على العباد..! كيف يرفضون هذا التشريف والتكريم..؟! ألا يعرفون مقام هذا الذي يترأف بهم وينزل عليهم آياته ليخلصهم وينفعهم ويرفعهم؟! إنه:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾:

إنه الرحمن يرحم عباده فلا يدعهم يتخبطون في الظلمات بلا هداية.. إنه الرحمن يأخذ بأيديهم ويتجاوز عن ذنوبهم ويستقبلهم

في رحابه ويغدق عليهم من نعمه.. ألم ينعم عليهم بهذا القرآن الذي فيه شفاء لهم..؟!

﴿الرحمن على العرش استوى﴾.. إن الآية لا تحتاج إلى تفسير لأن قلب المؤمن يحياها ويخشع لها.. فامض مع قلبك أيها المؤمن ولا تلتفت إلى متاهات أهل الكلام.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾:

أيها القارىء الكريم.. انظر إلى الأفق.. إلى بهاء السماء وغنى الأرض.. واترك خيالك يسبح ويجوب في أرجاء الآية الكريمة.. عالم زاخر لا تدركه الأبصار وهي تركض وراءه لاهثة.. وتقف العقول مشدوهة أمام لا محدوديته. أفتملك أيها الإنسان أن تحيط علماً بما في السموات.. وما في الأرض.. وما بينهما.. وما تحت الثرى..؟! ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1].. من أنت أيها الإنسان أمام هذا كله..؟! وماذا تساوي حين تتنكب طريق ربك..؟! لست إلاّ ذرة مكشوفة تحت مرصد اللطيف الخبير..

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾:

حركاتك وسكناتك محصية.. أفكارك وأسرارك مرصودة.. ومصيرك في الدنيا والآخرة رهن إشارة من الذي ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[2].. فافزع إليه.. والجأ إلى حماه.. فمالك من

(١) سورة تبارك: الآية ٤.
(٢) سورة غافر: الآية ١٩.

رب يحميك ويرعاك سواه. . والآية في منتهى البلاغة والإيجاز في بيان دقة علم الله. . فكأن أصلها: (فإن تجهر بالقول أو تسربه فإن الله يعلم الجهر والسر ويعلم ما هو أخفى من ذلك. . يعلم الجانب الذي قد لا تدركه أنت من نفسك والذي هو أخفى عليك من أسرارك. . إنه يعلم اللاشعور عندك. . الذي فيه بعض الدوافع الحقيقية لسلوكك والتي ربما تخفى عليك لأنها في اللاشعور أو (اللاوعي) من أجل ذلك ورد في الدعاء: «اللهم اغفر ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني».

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾:

فادعه بها وتحبب إليه بترديدها. . فإنه يبسط يده بالليل ليتوب إليه مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب إليه مسيء الليل.

اللهم يا ذا الصفات العليا. . والأسماء الحسنى. . يا ذا الجلال والإكرام. . أسألك باسمك الأعظم: يا حي يا قيوم. . خذ بيدنا إليك. . ولا تحرمنا من لذة مناجاتك. . وطيب الحياة في ظل طاعتك وخدمتك. .

• • •

٢ - قصة موسى

يا رسول الله لا تحزن.. ويا أيها الداعي إلى الحق في كل مكان لا تبتئس من كثرة التكذيب والأذى فإن الله معك يؤنس وحشتك.. ويمدك بعطاياه.. تأمل كيف كان حدبه على موسى.. ألم يأتك خبره؟!

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ...﴾:

لم لا تبدأ قصة موسى من أولها؟!

إن الله تعالى يختار لحظة الإشراق في قصة موسى ليبدأ بها في هذه السورة.. لتكون أعذب زاد لقلب رسول الله ﷺ وقلوب الدعاة من بعده فتستأنس بعد وحشة.. وتطرب بعد كربة..

هاهو موسى تائه بأهله في ظلمات الطريق.. وقد آذاهم قر الصحراء وعتمتها.. وسط كثبان الرمل المتشابهة.. فلا علامة ولا دليل.. وموسى يتلفت حائراً يلتمس بصيصاً يخرجه من التيه..

فإذا بالنـور ينبثق هناك.. قـريباً منـه في جبل الـطور.. فيستوقف أهله ويسرع إليه..

﴿إني آنست نـاراً لعلي آتيكم منهـا بقبس أو أجـد على النـار هدى﴾.

وهناك وجد كل شيء.. بل وجد خالق كـل شيء.. بأبـي أنت وأمي يا موسى.. ما حل بك وأنت تسمع أحلى نداء؟!

﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾:

النـور العظيم يغمـرك.. والرب الحبيب يكلمـك.. فماذا تبتغي أكثـر من ذلـك؟! وهـل يـطمـح القلب إلى أحلى وأعلى من ذلـك؟! ذكرت قول إقبال:

عـطايـا نـا سحـائبُ مـرسـلاتٍ	ولكن مـا وجـدْنـا الـسـائلينـا
تجلّي النـورِ فـوق الـطورِ بـاقٍ	فهـل بقي الكليمُ بـطورِ سينـا؟!

فتحسرت على نفسي.. وعلى المسلمين..

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ...﴾:

الذي خلقك ورباك وتعهدك..

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ...﴾:

وتأدب بحضرتي.. وكرِّم المكان الذي تقف فيه..

﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى...﴾:

من بين بـلايين البشر. اختصـك الله بكلامـه يا مـوسى.. فهنيئاً

لك.. واختارك لأداء رسالته ﴿فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري...﴾، وفي مثل هذا الموقف تحلو العبادة والصلاة والذكر.. وأمام لحظات التجلي تستيقن النفس. (ألا كل شيء ما خلا الله باطل...)، وما من أحد في هذه الدنيا يستحق أن توجه إليه وجهك وتعلق عليه أملاً من آمالك وتخضع لحكمه ورغباته.. (وكل الذي فوق التراب تراب).. ﴿كل من عليها فان.. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[1].

وللمرة الثانية وخلال خمس آيات من السورة تتكرر كلمة التوحيد.. وهذا يحتاج منا إلى وقفة تأمل.. فلننطلق مع صاحب كتاب «إقرأ» الأستاذ جودت سعيد حين يتساءل: (لم هذا الاهتمام الكبير بالتوحيد في الدين؟ فهل يمكن أن نرى أهمية التوحيد في واقع الفرد والجماعة؟ وهل هو شيء مهم لما يعانيه الإنسان في هذه الحياة أيضاً؟)[2].

والتوحيد يمكن أن يظهر في **ثلاثة جوانب**: توحيد الذات وتوحيد التشريع وتوحيد الرغبة والرهبة.. (فالنوع الأول من التوحيد يخالفه الماديون أصحاب وحدة الوجود. والثاني يخالفه الذين يتخذون البشر مصدر التشريع دون مراعاة موافقة أو مخالفة أمر الله. ويخضعون البشر له كما يحكي القرآن الكريم عن فرعون ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٦.

(٢) جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، صفحة ١٧٤.

لأجعلنك من المسجونين﴾[1]. والنوع الثالث يخالفه عامة البشر الذين يخافون ضر المخلوقات أو يرون نفعها)[2].

وهنا تستوقفني الآية: ﴿فاعلم أنه لا إله إلاَّ الله﴾[3].

فأتساءل: **ما علاقة التوحيد بالعلم؟**

إن التوحيد الحقيقي لا يتوصل إليه إلاَّ بالعلم ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فبالعلم يتعرف الإنسان على أوامر الله وتشريعه فإن التزم بها حقق التوحيد في التشريع. وبالعلم يكتشف الإنسان سنن الله وقوانين التسخير وأنها هي وحدها التي تحقق النفع ومن خالفها وقع في الضرر. . وبذلك يتحقق التوحيد في الرغبة والرهبة. . (فعدم العلم هو الذي يجعل الإنسان لا يلتزم بالتوحيد. إذن العلم هو أساس التوحيد الذي يقوم عليه ولا توحيد بلا علم. فإذا كان لا نجاة بدون توحيد ولا توحيد بدون علم. . فإنه **لا نجاة بدون علم**. هذا معلوم في التوحيد في أمر الله التشريعي ـ الحلال والحرام في الدين ـ أما العلم في أمر الله الكوني أي معرفة آياته في الآفاق والأنفس وتسخير الكون فالأمر كذلك أي **لا تسخير بدون علم**. . وهذا واضح في مجالات الزراعة والصناعة وتربية الحيوان بل وفي مجال الإنسان. إذن إن النجاة والنجاح في الآخرة والنجاة والنجاح في الدنيا لا تتم إلاَّ بالعلم)[4].

ويتابع الكاتب تأمله في أهمية التوحيد وعمق معانيه:

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٩.
(٢) صفحة ١٧٣ من المصدر السابق.
(٣) سورة محمد: الآية ١٩.
(٤) صفحة ١٧٤ من المصدر السابق.

(إن فكرة التوحيد **خروج من الآبائية** وعبادة الآباء. وهـذه الفكرة ـ الخـروج من تقليـد الآبـاء ـ هي الأرضيـة التي نبتت فيهـا كـل الإنجـازات البشريـة حتى التي كانت في صـورة معارضـة للدين: إنهـا لم تكن معارضة لجوهر الدين وإنما كانت معارضـة بكل وضـوح لفكرة الآبائية. والآباء كانوا حريصين دائماً على صب الأبناء في قـوالب تسد عليهم المنـافذ. والإنسـان عنده مـرونـة كبيـرة في تقبـل القـوالب التي يمكن أن يشكـل عليها، كمـا أن له تـوقاً وتـطلعاً إلى الحق. إن هـذه الـطبيعة المـزدوجة لـلإنسان يمكن الاستفـادة منها بفنيـة كاملة لا يجـاد الإنسـان الـذي **يلتـزم بـالجمـاعـة ولكن لا يسكت عن قـول الحق**. فـالصحابـي بـلال رضي الله عنه كـان يشعر بهـذه المسؤولية وأنـه ليس صفـراً وأنـه يمكن بـل يجب أن يؤدي دوره حين كـان يعلن: أحـد أحـد.. وهو تحت التعـذيب. ولم يقـل في نفسـه: إن المشكلة فـوق طاقتي فمن أنا حتى أزج بنفسي في هذه المعركة؟ أجل لقد كان عبـداً غـريباً.. ولكن كـان يمـارس الحـريـة والمسؤوليـة بشكـل لم يكن في مقدور من يعيشون في عالم ألغيت فيه العبـودية قـانونيـاً.. وعند هـذه النقطة يبدو صراع الحضارة مـع التخلف وصراع التـوحيد مـع الوثنيـة. **الحضارة والتوحيد يقولان للإنسان عليـك أن تمارس هـذا الحق فأنت مسؤول أمـام الحق وحده**، أمـام الله الذي خلق بـالحق وأمام نفسـك. أنت الذي تحمل الحق وتلتزم به. وهـذا الحق لك ومن ينـازعك فهـو المتخلف المشرك)[1].

---

(١) صفحة ١٨٣ من المصدر السابق.

(والأديان إنما تصاب بالنكسات حين **يتحول الدين إلى وثنية**.. ويلقن الناس أن **العصمة للآباء والمشايخ**. إنه التدحرج السهل للمنحدر.. وليس الصعود الشاق إلى تنمية الضمير وممارسة الحرية التي هي المسؤولية)[1].

نستخلص من ذلك أن (العلم والتوحيد يشتركان في أمور مما يجعلهما متحدي المعنى أو جانبان لموضوع واحد...

أولاً: لا يمكن أن يتحقق التوحيد بدون علم.. **ثانياً**: إن الخطأ في أي من العلم والتوحيد تأتي عقوبته التي لا تغتفر ولو بعد حين.. ومعلوم في الإسلام أن الذنب الذي لا يغتفر هو الشرك.. وكذلك الخطأ في العلم نتيجته فورية وحتمية.. فإذا أخطأت في استعمال الدواء أو الطاقة الكهربائية أو أعطيت معلومات خاطئة في الحياة الاجتماعية تأتي العقوبات حتمية وغير متسامحة... **ثالثاً**: إن العلم والتوحيد يتساوى موقفهما من عالم الأشخاص ـ الآباء ـ في ضرورة وضع عالم الأشخاص موضع الاختبار وعدم قبول ما يكون عليه عالم الأشخاص إلاَّ على قدر ما يكون فيه من الصواب الذي تثبته عواقب الأمور. وإذا كان عالم الأشخاص يقدم لنا العلم والتوحيد، إلاَّ أن العلم والتوحيد لا بد أن تجري فيه دائماً عمليات التصحيح والضبط)[2] أي أن العلم والتوحيد يصححان عالم الأشخاص.

وهنا لا بد أن نذكر أن العلم ينازعه الهوى ﴿أفرأيت من اتخذ

---

(١) صفحة ١٨٧ من المصدر السابق.

(٢) صفحة ١٩٨ من المصدر السابق.

إلهه هواه؟!﴾ فالهوى يغريك بلذة عاجلة فتغفل عن العواقب الوخيمة التي ستأتي بعد ذلك ـ كالذي يتعاطى الخمر والمخدرات، وكالتي تتبرج وتعرض عن الحجاب ـ ولكن كلما كان العلم راسخاً وشاملاً استطاع أن يدحر الهوى.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾:

والعبادة اسم جامع لكل عمل يتقرب به إلى الله. فالصلة تعين على دوام الذكر.. والذكر ينشط النفس للصلاة.. ومن كان ذاكراً لله فهو في صلاة.. لأنها صلة «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[1].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا...﴾:

ساعة الدنيا: نهاية العالم. أو ساعة الأمة.. أو ساعة كل إنسان.. إنها آتية.. ذكرت قول رسول الله ﷺ للأعرابي الذي سأل: متى الساعة؟ «ويحك إنها كائنة. فماذا أعددت لها»؟! وهل نجا أحد قبلنا من حلول ساعته؟ هل أفلت أحد من منيته؟!.

وقفت أتأمل قوله تعالى: ﴿أكاد أخفيها﴾!! إن الساعة ظاهرة مسرعة في القدوم.. ولكن الله يخفيها بعض الإخفاء حتى لا يذهل الإنسان من رؤيتها ومعرفتها فتنشل حركته ويتوقف عن السعي والعمل.. ألم يقل رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً

---

(١) متفق عليه.

ولبكيتم كثيراً...»[1]..؟! تعاليت يا رب في حكمتك.. إنك تكشف لنا من الغيب بقدر ما نطيق وبقدر ما يدفعنا إلى الأمل والعمل.

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾:

والسعي أساس الجزاء مع توفر النية الصالحة. إذ لا قيمة للفكرة بدون سعي.. بل لو كانت الفكرة موجودة حقاً لأثمرت السعي.. ولهذا يؤجر المجتهد وإن أخطأ لأنه زكى قلبه واستخدم طاقته.. وهذا السعي سيقوده إلى الصواب.. فمن خطئه يتعلم ويصحح. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...﴾.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

إن أتباع الهوى يتهربون من فكرة الآخرة ويعرضون عن الإيمان بها لأنها تحول بينهم وبين أهوائهم.. وهم منساقون مستعبدون.. قد سلموا زمام أنفسهم لرغبة جامحة أو فكرة منحطة.. وهم يتوهمون أنهم سعداء يتنعمون.. وهم في الحقيقة أسرى مكبلون لم يجربوا الانطلاق إلى الأجواء العليا..

اقطع القيد تحرر يا فتى ... يا أسيراً للهوىٰ.. حتى متى؟!

تجمح بهم الأهواء حتى يرتطموا بالعواقب الوخيمة فيتساقطوا.. فلا تغتر بهم.. وإلاَّ سقطت مثلهم وهلكت كهلاكهم.. ألا ترى كيف سقطت الأمم السابقة عندما أرداها الهوى؟

---

(١) رواه مسلم.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

لك الله يا موسى.. تريد تطويل الحديث حرصاً على هذه اللحظات الغالية في هذا اللقاء الحبيب.. ولكن اللب مأخوذ بروعة اللقاء فيخونك البيان.. وتتعثر الكلمات وترتبك.. فلا تجد أكثر من ذلك.

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾:

وتأتي المفاجأة التي لا يدرك موسى أبعادها لأول وهلة حتى يبين له ربه:

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾:

ومعجزة أخرى:

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ[2] جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾:

إنه التكليف يا موسى.. ويرتجف قلب موسى لثقل الأمانة التي ألقيت على عاتقه.. كيف؟! وفرعون قد طغى حتى تبجح وقال: أنا ربكم الأعلى؟! كيف أدعوه؟ وماذا أقول؟! وهل أستطيع أن أعرض الدعوة كما يليق بها؟! وأبيِّن وأقنع؟!

---

(١) أخبط بها الشجر ليسقط ورقه لتأكل غنمي.

(٢) إلى جناحك أي تحت عضدك الأيسر.

ولكنه في حضرة ربه.. الله الذي يعلم السر وأخفى... وتدركه رحمة الله اللطيف الخبير فيُلْهَم اللجوء والفزع إلى الله بهذا الدعاء الفذ:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾:

حتى أمضي لما أمرتني ثابت الجنان مستبشراً.

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾:

حتى أنجز مهمتي بأقل جهد وأحقق أفضل أثر..

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾:

هبني قوة البيان وطلاقة اللسان في عرض آياتك وآلائك..

وامنحني معيناً يدعمني ويحمل معي عبء هذه الدعوة.

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾:

وادعم به قوتي.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾..

وما أحوج الداعي وهو يجابه الدنيا بأسرها.. طغيان الطغاة.. وبلادة السادرين.. وجهل المستضعفين.. ما أحوجه وهو يتصدى لركام التقاليد وعتو الباطل.. إلى رفيق يشاركه أفكاره ويقاسمه كفاحه.. وقبل كل شيء لا بد من الزاد الذي لا يغني عنه شيء: دوام الذكر والصلة بالله..

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾:

فلقد أنقذتنا من ضلال العبودية لغير سناك.. ولقد حررتنا من الخضوع لظلم الفراعنة.. وأعتقت عقولنا من ظلمات الوهم والدجل.. ولقد آتيتنا وأعطيتنا ما لا يُعد ولا يحصى من الأفضال والنعم..

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾..

سلْ تُعطَ يا موسى.. فإن ربك لم يتخلَّ عنك قبل النبوة.. أفيمنع عنك عطاءه وقد أصبحت صفيه.. وأنت بين يديه..؟!

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾:

فأنت منذ ولادتك محاط بالرعاية الربانية.. أنسيت كيف ولدت في زمن كان فرعون فيه يذبح الذكور من مواليد قومك ليكسر شوكتهم..؟! ولكن بسطت عليك حمايتي.. وتعهدتك برعايتي..

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾:

فألهمتها:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾:

ولا تخافي ولا تحزني فإن البحر مأمور من خالقه:

﴿... فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ....﴾..

وهناك حصل ما هو أغرب من الخيال.. فحتى قلب الطاغية لا يملك الانفلات من أمر الله.

﴿...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾:

أي سخرية أكبر من هذه يا فرعون. .؟! إنك أنت الذي يزعم أنه يحكم العباد ويتحكم في مصيرهم. . تقع في حب عدوك. . فتضمه إلى كنفك. . وتتعهده بالتربية حتى يشتد عوده ويقضي على جبروتك. . !!

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾. .

أتسمع يا نبي الله. .؟ وماذا تريد أحلى من هذا التودد يلقيه عليك ربك. .؟!

ولكن كلمة (تصنع) تدهشنا هنا. .! الإنسان يصنع صناعة. . ويتولى هذه الصناعة أمه وأبوه ومربوه. . البيئة التي يدرج فيها هي التي تشكله وتنقش كل شيء في معالم شخصيته. . وهاهو موسى يدرج بين بيئتين. . قصر فرعون بما فيه من تعليم وتهذيب لا يتاح للعامة. . ومن بذخ واستكبار وعتو. . وبيت أمه في بني إسرائيل: حيث الإيمان والتوحيد. . والذل والمسكنة والاستضعاف. . حقاً لقد عرضت على موسى المبادىء المتناقضة. . وصور الحياة بكل ألوانها حلوها ومرها. . لقد كانت زاوية النظر أمامه شاسعة مترامية الأطراف. . قضى طفولته وشبابه وهو يقلب النظر فيها حتى شحذت بصيرته وانجلت الحقائق أمامه فعافت نفسه الكفر والاستكبار وهو ربيب القصور. . وعلت همته عن الذل والاستضعاف مع أنه من بني إسرائيل الذين استعبدهم فرعون.

﴿ولتصنع على عيني﴾ كيف أعبر عن ما في نفسي أمام الآية. . وهي تلخص جيلاً من الزمان. . حافلاً بالخبرات والمعاناة. . ولكن

أبرز ما في الصورة هو حساسية موسى المرهفة ضد الظلم.. وما كان للبيئة من أثر في (صناعة) هذا الإحساس.. ألا ترى كيف يبادر بشهامة ـ كما ترسمه لوحات أخرى في سور أخرى ـ إلى نصرة المظلوم الإسرائيلي.. وكيف يغلي دمه من رؤية المرأتين ـ في مدين ـ تذودان حتى يسقي الرجال الأقوياء.. فيتدخل لإنقاذ الموقف وهو الرجل الغريب عن البلد.. ثم يناقش والد عروسه محذراً من الظلم ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾[1].. وينبري لفرعون حين يذكره بفضله عليه وعلى بني إسرائيل حين سمح لهم بالإقامة في مصر.. فيقول محتداً ﴿وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبَّدت بني إسرائيل﴾[2].. بل إنه يسأل الله سبحانه وتعالى متعجباً ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك؟! ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾[3].

إن الآية ﴿ولتصنع على عيني﴾ تشعرني بمدى التقصير في عالمنا الإسلامي حيث تترك صناعة الإنسان للصدف والعادات السائدة.. وتترك الأم ـ وهي المشرف الأول على هذه الصناعة ـ جاهلة خالية الوفاض لا تدرك خطورة ما تصنع، ولا تعرف كيف تصنع..!! ولن تتغير أحوالنا حتى نغير أسلوبنا في صناعة الإنسان..

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٨.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٨.

حتى يعود إلى أحسن تقويم، ولقد تطور هذا الموضوع عند الآخرين وقدم المفكرون عندهم أبحاثاً في ذلك من مثل (تكنولوجيا السلوك الإنساني) لسكينر. وقد نشعر أنهم بالغوا في تجسيم أثر البيئة.. وألغوا قدرة الإنسان على الاختيار.. ولكننا كمسلمين فرطنا في استغلال البيئة في صناعة الإنسان وعلقنا الأمر بإرادة الله التي أسأنا فهمها.. ونسينا قول النبي ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه...».

نعود إلى لحظات التجلي وكلام الله مع موسى وهو يذكره برعايته له في وقت كان فيه أضعف ما يكون.. طفل وليد من بني إسرائيل المغضوب عليهم في صندوق مرمي على ساحل البحر.. ولكن هذا الطفل الضعيف سخرت له جيوش الحنان في قلب فرعون وزوجته.. وفي قلب أمه وأخته..

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾:

لقد تتبعت التابوت من بعيد.. ورأتهم ينتشلونه ويحملونه إلى القصر.. ورأتهم حائرين في تدبير أمر إرضاعه بعد أن أعرض عن كل من حاولت إرضاعه.. وهنا تدخلت وعرضت خدماتها.. فعاد الوليد إلى أمه محفوفاً بالحماية.. كل هذا وفرعون لا يدري شيئاً عن أبعاد هذا التدبير.. فيا لحكمة الأقدار..!

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾:

فالرحمن مطلع على القلوب.. والرحمن يسارع في نجدة قلوب المحسنين ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾..

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ :

خطأ.. وذلك حين كنت تدافع عن الإسرائيلي المظلوم..

﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ :

وقد شعرت بالذنب والخوف وتوجهت بالندم والاستغفار إلى الله ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي.. فغفر له﴾[1].

﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ :

برؤية قومك يسامون الخسف.. وبالخوف من القبض عليك قصاصاً.. وبالهروب عبر الصحراء غريباً خائفاً.. فلا بد من الفتنة والاختبار حتى تَخْلُص نفس النبي ﷺ ـ والدعاة من بعده ـ من كل شائبة ومن كل زيغ أو ضعف.. كما يفتن الذهب بالنار حتى يخرج خالصاً نقياً. وكما يقولون: (المحنة إن لم تقض عليك زادتك قوة).

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ :

مع بيئة جديدة وأمة مختلفة اكتسبت فيها خبرات جديدة وذقت المعاناة في السعي وراء الرزق..

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ :

فقد كنت تتحرك بملء إرادتك.. ولكنك لم تخرج ولن تخرج عن علم الله. فربك يعلم أنك ستأتي في هذا الموعد.

---

(١) سورة القصص: الآية ١٦.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ . .

اخترتك من بين الجميع وميزتك ورفعتك بأن تكون لي بحياتك وأحاسيسك وسعيك وعملك . . الله الله . . !! ماذا حل بك يا نبي الله وأنت تسمع هذا التودد من رب العالمين . . ؟! يا من لا حد لكرمه . . امنحني بعضاً من ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ . . ولكن واخجلتاه لا أستحق ذلك . . رب قد أعطيتني أضعاف ما أستحق . . فأعني على نفسي حتى أستحق أكثر من ذلك . .

وهنا وقد وصلت أحاسيس موسى إلى الذروة يتكرر التكليف الإلهي :

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ :

فإن ذكر الله هو الذي يؤهلكم لأداء الرسالة ويذلل العقبات أمامكم . فلا تفترا ولا تقصرا في ذكر الله .

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ :

سبحان الله . . ! ذكرت قول أحد العلماء في مناجاة ربه عندما تلا هذه الآية (رباه هذا تلطفك بمن قال : ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ فكيف لطفك بمن قال : سبحان ربي الأعلى؟!) .

وإنه لتأديب كبير من رب العباد للدعاة . . فإن الرفق ما كان في شيء إلاَّ زانه وما نزع من شيء إلاَّ شانه .

وإن الله سبحانه يعلم مسبقاً أن فرعون لن يستجيب ولكن يأمر موسى وهارون أن يبذلا كل ما يمكن من لين وبيان لفرعون

ولا يخبرهما أن فرعون لن يستجيب.. بل يقول لهما: «لعله يتذكر أو يخشى» لأن الأمل في هدايته سيجعلهما أكثر حماساً وبذلاً.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾:

أرى أن الخطاب أصبح مع موسى وهارون كليهما؟! فهل حدث هذا في لقاء ثانٍ؟ أم أن هارون لحق بموسى وانضم إليه في هذا التجلي عند الطور؟! الله أعلم. المهم إنها المواجهة مع فرعون.. وموسى وهارون يعرفان سرعته في البطش وإفراطه في الجبروت.. فقد يعجل بعقابهما قبل أن يؤديا الرسالة.

ولكن هل نسيتما أن الله هو الذي يكلف.. والله هو الرقيب.. والله هو الحفيظ..؟!

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾:

ومن كان الله معه فماذا يهمه..؟!

بأبي أنت وأمي يا رسول الله حين خرجت من مكة مهاجراً على حين غفلة من قريش التي جنَّ جنونها من دعوتك وحشدت شبابها وفرسانها للقضاء عليك.. خرجت إلى غار ثور بصحبة أبي بكر.. واقتفى القوم آثاركما حتى وصلوا إلى الغار.. وجعلوا يبحثون حوله محتارين.. ويرتعد أبو بكر قائلاً: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه؟! ولكنك ساكن إلى ربك مستيقن من حمايته.. «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1] لا مكان للخوف في

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

قلب متصل بالله مستيقن أن أمره كله بيده. . تلك هي الحقيقة التي اهتم رسول الله ﷺ بتعليمها لابن عباس وهو طفل دون العاشرة حين قال له: «احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعواعلى أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك»[1].

إن هذه الحقيقة حين تستقر في القلب المؤمن تملؤه بالإقدام والشجاعة. وقد لاحظ ول ديورانت في دراسته للإسلام والحضارة الإسلامية أثر هذه العقيدة في نفوس الصحابة حين يقول: (وقد استعان بها النبي ﷺ وغيره من الزعماء لبث الشجاعة في قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر. وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد الصعاب بجنان ثابت. . ولكنها أيضاً كانت من الأسباب التي عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم في القرون المتأخرة)[2].

وذلك لأنهم تركوا الأخذ بالأسباب وردوا كل أحوالهم وظروف حياتهم إلى إرادة الله وقدره. . وهو فهم خاطىء لقدر الله. . فانظر كيف يختلف تأثير الفكرة الواحدة وتوظيفها باختلاف المرحلة التي تكون فيها الأمة. . هل هي مرحلة الصعود. . أم الهبوط والتخلف. !!

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الجزء ١٣ من قصة الحضارة (عصر الإيمان) ول ديورانت.

إن اليقين بأن الأمر كله بيد الله يحرر القلب من الخوف من أي شيء سواه.. لكن هذا لا يعني ترك الحذر والاجتهاد في القيام بأسباب النجاح على أحسن وجه ممكن.. لقد اتخذ الرسول ﷺ كل ما يقدر عليه من الأسباب في هجرته من مكة.. فكتم الأمر وضلل المشركين حين اتجه إلى غارثور في الجنوب بدلاً من السير مباشرة في طريق المدينة.. ولبث فيه ثلاثة أيام.. وكان عامر بن فهيرة يمر بغنمه على طريق الغار ليطمس آثار الأقدام ويضلل قصّاص الأثر.. وبعد أن بذل كل ما يملك من أسباب ركن إلى ربه مستمتعاً بمعية الله.. «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟!

فأين نحن من هذا اليقين..؟! وأين نحن من تربية الرسول ﷺ للصغار والكبار وتطهير قلوبهم من الخوف إلاَّ من الله؟! ألم يأخذ العهد على الأنصار في بيعة العقبة «وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم»[1]؟!

أين هذا منا نحن الذين نعلم أولادنا أن يخافوا من كل شيء إلاَّ من الله..؟! وما زلت أتذكر بمزيد من التقدير قول الفيلسوف الإنجليزي راسل: نحن بحاجة إلى جيل من الأمهات لا يعرفن الخوف.. لكي نغير العالم.

ولا يمكن أن تتحرر الشخصية من الخوف إلاَّ بالعلم والإيمان.. فالأم الجاهلة هي التي تزرع الخوف من الأوهام في قلب الطفل..

---

(١) رواه الإمام أحمد.

والأم التي انقطعت عن الله ولم تدرك سننه سترضع وليدها الجبن والخمود والعطالة.

وإذا النساء نشأن في أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

فما قيمة الأمة التي تخاف من قول الحق..؟! إنها تعجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فيتعطل جهاز المراقبة والتصحيح فيها.. فأي خير يرجى منها بعد ذلك..؟!

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾:

إنها معية الله فهنيئاً لكما.. ﴿أسمع وأرى﴾ وأُجري الأمور بعلمي وحكمتي ولنا أن نلاحظ كيف ارتقت النبوة والرسالة حتى بلغت ذروتها في خاتم الأنبياء.. ففي عصر موسى كان الله يقول له: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ ﴿لا تخافا إنني معكما﴾. أما في عصر محمد ﷺ فكان هو ﷺ الذي يقول لأبي بكر: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾[1].. وفي عصر المسيح كان المسيح يقول لأتباعه: (أحبوا أعداءكم).. بينما قال الله عن أتباع محمد ﷺ: ﴿هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾[2].. إن هذا ليدل على ارتقاء الإنسانية وأن الخير يتأصل فيها عبر العصور.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ...﴾:

ومطلوب منك بعد أن تؤمن بربك:

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٩.

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ :

فإنما جاء موسى ليخلص بني إسرائيل ويخرجهم إلى الأرض المقدسة حيث يعلمهم كيف يؤدون دور الخلافة ويقيمون الشريعة في الأرض فلقد كانوا في ذلك الزمان هم الأمة المستخلفة لأنهم أفضل من معاصريهم[1].

﴿ . . . قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ :

بهذا اللين وبهذا الإعلان عن السلام.. فنحن لا نريد حربك ولا أذاك وإن السلام والأمن الحقيقي لا يستمتع به إلاَّ من اتبع الهدى.. لأنه يعرف سنن الله ويمشي بحسبها فلا يصطدم ولا يتخبط.. كمن يعرف قوانين السير ويراعيها فهو الذي يصل إلى هدفه بسلام..

وكأن الستار قد أسدل على مشهد المناجاة على الطور ثم فتح على موسى وهارون وهما في مواجهة فرعون قد قطعا شوطاً في دعوته.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ :

مقابل أن السلام لمن اتبع الهدى.. وهكذا لا بد من الجمع بين التبشير والإنذار.. وهنا يتشامخ فرعون ويسأل ساخراً.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؟

---

(١) راجع كتاب (من هدي سورة البقرة)، حنان لحام، عند تفسير الآية ٤٧، والآية ١٢٢.

ويتولى موسى البيان ببراعة فائقة:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾:

انظر من حولك يا فرعون.. انظر في خلق الله في هذا الكون.. كل مخلوق متفرد بصفات وسمات.. وقد هدي إلى أسلوب حياته ونوعية رزقه.. وكيف يحصل عليه.. وما هو سلاحه؟ وكيف يدافع عن نفسه...! كم يلح القرآن على الأمر بالسير في الأرض والنظر.. وإن مثل هذه الآية يمكن أن يكتب فيها مؤلفات ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

انظر إلى كل شيء.. فإن كل شيء يشهد بحسن تدبير الله.. وإن كل شيء يكاد ينطق ليدلك على الله.. فكيف تسأل؟ يكاد لسانك الذي تنطق به أن يقول لك: اصمت وتأدب.. فإنني أنا من إبداع الله.. تكاد نفسك التي بين جنبيك أن تتبرأ منك وتشهد لله.. كف عن المكابرة يا فرعون.. فإنك تعلم أنك لم تخلق هذا الكون البديع.. ولم تخلق نفسك التي تختلج في صدرك..!! ولكن فرعون وقد بدأ يشعر بالهزيمة في أعماقه يحاول أن يتدارك الموقف ويحول دفة الحديث إلى زاوية يستثير بها التعصب للآباء والأجداد في نفوس الحاضرين..

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝٥١﴾:

هل تزعم يا موسى أن آباءنا على ضلال؟! وهل خفي هذا الذي تدعيه على الأمم التي سبقت؟! أتريد أن تسفه الآباء وتعيب أحلامهم؟!

ولكن موسى يتخلص من الموقف ببراعة ليعود إلى صلب دعوته.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾:

وهنا درس كبير للدعاة.. ماذ نستفيد من تكفير الأشخاص وتسفيه الآباء والأجداد؟! هل هذا مما يشرح صدور الناس ويفتحها أمام الدعوة؟! وهل الحكم على الناس وحسابهم من وظائفنا؟! لماذا نتعدى حدودنا ونتصدى لعمل لا يقدر عليه إلّا الله.. ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾.. ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾[1] إن الهجوم على الأشخاص ـ وخاصة السلف ـ يحول الدعوة إلى ضرب من المهاترات تستفز الحمية الجاهلية وتعمي الأبصار عن الحق.. فلا تعط الفرصة لأصحاب الباطل كي يصرفوك عن لب الدعوة إلى الطعن في الناس.. ودع الناس إلى رب الناس فإنه يعلم حالهم وظروفهم ونواياهم.. ويعطيهم ما يستحقون. إن السابقين قد ذهبوا إلى رب عادل ورحيم. وأنتم أيها الناس مسؤولون أمام الله عن عقولكم ولا تسألون عن أفكار الآباء والأجداد: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾[2] ففكروا بعقولكم لإنقاذ أنفسكم فإن فكر الآباء وعملهم لن يعفيكم من المسؤولية.. وهكذا تخطى موسى العقبة التي حاول فرعون أن يعرقل بها دعوته وانطلق من جديد ليرتاد الآفاق مستعرضاً مظاهر الجمال والجلال والتدبير المحكم:

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٤.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا. . .﴾:

ترتاحون فيه مذللة فيه حياتكم ومعاشكم ومنامكم. .

﴿. . .وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا. . .﴾:

وهي تشمل كل طريق ـ مادي أو فكري ـ لتحقيق الخلافة في الأرض. فالقوانين والسنن هي التي تشق لنا طريق التسخير في عالم الآفاق والأنفس. . وهي سبل أنعم الله بها علينا وإن غفل عنها الغافلون.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾. .

هذا التنوع الذي لا حصر له. . يحار النظر في ملاحقته. .

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

إنها علامات وبراهين يدركها أصحاب العقول فيخشعون لها. . بينما يغفل السادرون الذين عطلوا الألباب والأسماع والأبصار. . ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[1]. . نعم كل هذا في الأرض التي تشهد لبارئها. . والتي هي مادة خلقكم ومآب رفاتكم وموضع بعثكم. .

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾. .

فيا أيها الإنسان. . يا كومة التراب التي كرمها الله وجعلها في أحسن تقويم. . !! ألا تخجل من ربك. . ؟! أنسيت أنك ستعود من

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

حيث أتيت.. قبضة من طين..؟! كيف نسيت المبدأ والمصير..؟! أظننت أن الحكيم العليم الذي أبدعك في أحسن تقويم سيتركك تفسد في الأرض وتظلم.. ثم لا يبعثك ولا يسألك..؟!

وبعد فقد عرض موسى كل ما في جعبته من بيان وآيات معجزة.. ولكن فرعون ازداد عتواً..

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾.

تريد أن تنتزع السلطة منا؟! حقاً إنها لتهمة عجيبة!! إن موسى قد طلب من فرعون أن يسمح لبني إسرائيل بالخروج من مصر.. فكيف يعمد فرعون إلى هذا الافتراء..؟! ولكنه دأب الطغاة في كل عصر.. يقلبون الحقائق.. ويلفقون التهم المزورة للدعاة كي يبرروا بطشهم بهم.. وما من طاغية في الأرض إلّا ويتذرع بالشرعية.. ويحاول الظهور بمظهر المتمسك بالقانون الحريص على مصالح شعبه.. ويدعي أن هؤلاء الدعاة هم مخربون مفسدون في الأرض يجب القضاء عليهم كي لا يدمروا حياة الناس وأمنهم.. ولا بد للداعي من سيرة عطرة وتاريخ مبرأ من الجرائم والعثرات.. وأهداف واضحة نزيهة أعلى من الوصول إلى السلطة.. كي يحبط خطة الطغاة في تلبيس الأمر على الناس ويجعل تهمهم فارغة خاوية من أي برهان.

ويتهم موسى أيضاً بالسحر ويدعوه إلى مباراة مع سحرته..

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ :

مستوياً يصلح لإقامة المباراة وشهود الناس لها.. فقد كان فرعون واثقاً من قوة سحرته في فنهم.. وأراد أن يفضح موسى أمام الجماهير ويقطع كل حديث عن دعوته... وأما موسى فقد كان على يقين من ربه ودعوته.. ووجدها فرصة لبيان صدق دعوته أمام الناس جميعاً.. فألح في طلب شهود الناس للمباراة.. واختار الموعد في عيد يجتمع الناس فيه عادة.. حتى يضمن حضورهم ولو قصَّر فرعون في تبليغهم..

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ :

ووقت الضحى أضمن في جلاء الأمور وحضور الناس. حين أتأمل الموقف أحس بسذاجة فرعون القديم أمام فراعنة هذا العصر.. إن فراعنة هذا العصر أشد مكراً من أن يسمحوا بمباراة مكشوفة وحوار مكشوف مفتوح أمام الجماهير.. يعرض فيه الداعي أدلته وبراهينه بكل حرية.. إنهم لا يغامرون بذلك إلَّا إذا ضمنوا سيطرتهم على المسرح والمتفرجين.. وسلطوا الأضواء التي يريدون.. وعتموا الأركان التي لا يريدون كشفها.. ورحم الله المفكر مالك بن نبي حين تحدث عن الصراع الفكري في البلدان المستعمرة.. فشبه الصراع الدائر بصالة عرض تسيطر عليها مراصد الاستعمار.. والعجيب في هذا العرض أنه يقلب الأمور فيعتم المسرح ويسلط الأضواء على صالة المتفرجين.. وهكذا لا تعرف الجماهير حقيقة ما يدور على المسرح ـ من صراع

فكري بين الدعاة والطغاة ـ بل هي مشغولة بجزئيات ما يدور حولها في الصالة المضاءة. وهكذا ينطلق فرعون بكل غفلة.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾..

كل ما قدر عليه من سحرة وجند وبطش..

المشهد الآن في ميدان المدينة.. والجماهير محتشدة في ضجيجها وصخبها.. والسحرة في الوسط يتأهبون وقد تلقوا الوعود السخية من فرعون إن هم تمكنوامن التغلب على موسى.. هاهو موسى يتوجه إليهم داعياً ناصحاً قبل بدء المباراة:

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم (١) بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾..

إنكم تعلمون أن سحركم عبارة عن كذب وألاعيب.. فلا تتطاولوا على دعوة الله.. ولا تناصروا كفر فرعون وادعاءه الألوهية فإنكم تعرفون كذبه.. وإن حبل الكذب قصير.. ولا بد أن يفتضح الكاذب ويخسر في نهاية الأمر.. فاحذروا عذاب الله.

أرى بعض الوجوه قد تغيرت.. وكأن بعض النفوس قد زلزلت.. فقد سرت همهمة في صفوف السحرة.. وقال بعضهم: إن هذا الكلام لا يصدر عن ساحر.. وهمس آخرون: لعل موسى على حق..

---

(١) فيسحتكم: فيستأصلكم بعذاب.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾.

ولكن الأكثرية قالوا بثقة:

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾:

إنهما يريدان أن ينتزعا منكم إمامة هذا الفن وأنتم سادته وأعلم الناس فيه.. فاصمدوا لهما.. واستحضروا أعظم ما عندكم من سحر وكيد وكونوا يداً واحدة عند المواجهة:

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾:

لأنه سينال جائزة فرعون وتقدير الناس.

ويجعلني هذا الموقف أتساءل: أليس عجيباً ما نرى من تلاحم أهل الباطل على باطلهم وتفرق أهل الحق وتشتتهم..؟! مع أن الإسلام علَّم أتباعه التلاحم في صفوف الصلاة خمس مرات في اليوم.. ولكن المسلمين تمسكوا بالأشكال وفقدوا الروح.. فتراهم يحرصون على رص الصفوف في الصلاة.. فإذا خرجوا من المسجد كفَّر بعضهم بعضاً وأكل بعضهم لحم بعض..!! ﴿يا أيها الذين آمنوا لِم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾.

وهنا ينادي المنادي ـ أو ينفخ بوق ـ معلناً بدء المباراة.. فيتوجه السحرة إلى موسى:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾:

وبعض الناس يظن أنه إن سبق في الكلام وفي عرض ما لديه كسب الموقف.. ولكن الحكيم يدرك أن من الأفضل أن يترك خصمه يفرغ ما في جعبته كي يعرف كيف يرد عليه. وكما أن (من يضحك أخيراً يضحك كثيراً).. فإن من يختتم الحوار ينسخ ما قبله ويقدم لك الثمرة النهائية.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾..

فعرضوا أعظم ما عندهم من سحر.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾..

إن لديهم قدرة على التأثير على خيال المتفرج وإيهامه بما يريدون.. وذلك هو السحر: التأثير الخفي.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾:

من أن يظن الناس عصاه مثل عصيهم ومعجزته مثل سحر هؤلاء المبطلين.. ولكن عناية الله تدركه.. ووحيه يثبت أقدامه.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾:

والحق يعلو ولا يعلى عليه:

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾..

وكما يقولون: تستطيع أن تخدع كل الناس لبرهة.. وأن تخدع رجلاً واحداً كل الوقت.. ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل

الوقت.. ولا بد أن ينجلي السحر ويزهق الباطل بمجيء الحق. وهكذا وقعت عصا موسى على السحر فأبطلته وفضحته.. وذهل السحرة أمام المفاجأة ولم يتمالكوا أنفسهم..

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا...﴾:

لقد خرج الأمر من أيديهم.. ووجدوا أنفسهم يرتمون خاشعين مذعنين لربهم وقد أيقنوا أن ما جاء به موسى ليس سحراً.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾:

وأسقط في يد فرعون.. وكاد يصعق وهو يرى أركان عرشه تُزَلْزَل.. وكيده يتهاوى.. ولكنه يحاول أن يتدارك الموقف بجبروته.. فيهب من جلسته مهدداً متوعداً مطلقاً قذائف غضبه:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾..

عجباً للطغيان!! إنه يتصور أن من حقه أن يتسلط على القلوب والأرواح..!! فلا يحق لأحد أن يفكر إلاّ بإذنه؟! ولا يجوز لأحد أن يسجد لخالقه إلاّ بتسريحه..!! ويخرج فرعون ما تبادر إلى ذهنه من تهم ليصرف الناس عن التأثر بموقف السحرة.. فيصيح: إنها مؤامرة مبيتة دبرتموها مع موسى لتدمروا أمن البلاد.. إنه كبيركم وزعيمكم موسى هو الذي دبر معكم هذا.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾:

فالويل لكم مني..

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

ويحك يا فرعون.. أبلغت بك الوقاحة حداً تتبجح فيه بالتفوق في التعذيب والتنكيل.. ﴿ولتعلمنَّ أينا أشد عذاباً وأبقى﴾؟! ومن أنت أمام الله يا مغرور؟!

صه.. دعونا نسمع ونرى.. ماذا حل بالسحرة..؟! ألم ترتجف قلوبهم؟! ألم تصطك ركبهم؟! عجباً لهم..!! إنهم يواجهون فرعون برؤوس مرفوعة.. ونظرات مُستخِفَّة.. ويردون عليه بعزة المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان فوجدها تستحق كل تضحية وتطغى على كل عذاب..

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا...﴾.

والعبارة الأخيرة إما أنها معطوفة على ما قبلها فهي بمعنى: لن نؤثرك على الله الذي فطرنا.. أو أنها القسم فهم يحلفون بالله الذي فطرهم أن لا يتراجعوا..

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾:

يا فرعون إن الأمر أكبر وأهم من هذه الحياة الدنيئة السريعة الزوال.. فافعل ما تشاء و﴿اقضِ ما أنت قاض﴾ فإننا بشوق إلى لقاء الله..

قد تملك سوطاً يكويني	وتحز القلب بسكين
قد تجعل غلك في عنقي	وتحاول قطع شراييني

وتـطارد شعـراً أكتـبـه	بشمـالـي إن عـز يمـيني
وتجـوع طفلي من بعـدي	واهـاً للطفـل المسكـين
لكن لن أخضـع في يـوم	لـلذل بـضـعـف أو لـيـن
أنـا لست أساوم بـالـدنيـا	دنيـاكم ليست تـرضيـني
أنـا لي هـدف أسمى أعلى	نفسي لا تـرضى بـالـدون
فتبـاشيـر الفجـر انـطلقت	من جـرح شهيد وسجين[1]

يا فرعـون. . إن كان مـا عندك هـو العذاب والتنكيـل. . فإن الله عنده الرحمة والرضوان. . وعسى أن يكفر عنا صبرنا سيئاتنا وما أكرهتنا عليه من السحر لتعزيز سلطانك. .

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ. . . ﴾:

عجباً لك أيها الإيمان. . !! إنك تدخـل إلى النفوس التي كـانت قبل قليل تمثـل الفئة المـأجورة المـرتزقـة يحركهـا فرعـون بإشـارة من إصبعه. . فإذا بها شامخة سامية راسية كـالجبال. . لا يـزعزعهـا تهديـد أو وعيد. . !!

حقاً إنك أيها الإيمان. . الولادة الجديـدة للإنسـان. . وما أحقـر الحياة. . وما أتفه الإنسان بدون إيمان. .

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾. .

أتسمـع يا فـرعون. . إذا كنت أنت لعنـة هذه الـدنيا وعـذابها. .

(١) الأبيات من القصيدة النونية، ليوسف القرضاوي.

فلا بقاء لهذه الدنيا... والله هو الخير والأبقى.. وهل من مجال للمقارنة بين دنيا فانية.. وما يجري هناك في دار الخلود..

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

وتطهر من أوساخ القلب وأمراضه: الشرك والشك والغل والحسد والكبر و... ومن أقذار الجوارح: الذنوب والمعاصي.

وبعد.. فإن منهج الله يحقق الخير والأبقى حتى في هذه الدنيا.. وعلى الدارسين أن يبحثوا ويتأملوا: ألم تأخذ آيات الله بأيدينا حتى نحقق الخير والأبقى..؟ وعلى المؤمنين أن يتذكروا أن كل أمر يتحقق فيه الخير الأبقى لأكثر الناس فهو من أمر الله وشرعه.. إلى أن نكشف ما هو أكثر خيراً وأدوم بقاء.. وكم طور الناس في وسائلهم فكانوا كلما كشفوا الأفضل تركوا القديم إلى ما هو خير وأبقى.. (في المواصلات، والأدوية، وفي وسائل التربية والتعليم، في الزراعة والصناعة و...)..

فابحث أيها المؤمن عن الأنفع والأبقى.. فإن إبراهيم قد حث قومه على الأخذ بما ينفعهم «أو ينفعونكم أو يضرون؟!».. وإن الباطل الضار قد يخدع الناس لفترة ببريق زائف.. ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[1]. وهكذا تنمو الحياة

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

الإنسانية باستمرار. . وتتخلى أثناء الطريق ـ ولو ببطء ـ عن كل ما يضر ولا ينفع. . فاطمئن أيها المؤمن. . فإن المستقبل للخير والأبقى. . ولا تدع الناس يسبقونك إلى ما هو خير وأبقى. . ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[1].

ويسدل الستار فلا ندري ماذا حل بالسحرة. . هل نفذ فيهم فرعون وعيده. . ؟!

لقد وقفت الآيات عند هذه اللحظات المشرقة الغامرة بالنور. . ـ والسورة تركز على اللحظات المشرقة ـ ولا خوف على السحرة مهما حل بهم في تلك اللحظة. . فلقد فازوا بالنور والرضى والخلود. . فإنما هم إحدى القوافل في ركب الإيمان الذي يواصل سيره منتصراً على البلاء. . متجهاً إلى ربه. . حادياً للناس كي يلحقوا به ويقتدوا بهديه. .

ونتجاوز حلقات من القصة كي نلحق بالمشهد الجديد. . فالسورة لا تريد الخوض في كل التفاصيل. . وإنما تُنْتَقى لقطات تتناسب مع إيناس الرسول ﷺ وشحنه بالنور والعون الإلهي ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾. . . فهاهي يد الله تمتد لنصرة موسى وقومه على فرعون:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[2] بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا[3] وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

(١) سورة محمد: الآية ٣٨. (٢) أسر: سر ليلاً. (٣) دركاً: أن يدرككم فرعون.

وكما هو معروف نجّى الله بني إسرائيل بمعجزة شق البحر عن طريق النجاة. وقد انتهى زمن المعجزات.. ولكن الناس ما زالوا يتطلعون إلى نزول المعجزات.. يحدثنا التاريخ أنه في عام ١٤٩٢م وقّع فرديناند وزوجته إيزابيلا مرسوم نفي اليهود. وترك إسبانيا منهم أكثر من مائة ألف وقبل خمسون ألفاً التنصر فسمح لهم بالبقاء.. بعد أن تعرضوا للحرق ومصادرة الأموال.. (وقابل الربانيون ذلك بأن أكدوا لأشياعهم بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد وذلك بأن يفتح لهم معبراً في البحر كما فعل لآبائهم في القديم.. وانتظر المهاجرون الذين اجتمعوا في قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى أفريقيا دون أن تبتل أقدامهم؟! فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن ومزقت العواصف أسطولهم)[١]..

لا تسخر أيها المسلم من موقفهم.. فإن القوم قد تعلموا بعدها كيف يشقون بأيديهم معبراً إلى (أرض الميعاد) ـ بزعمهم ـ وأدركوا أنه قد انتهى زمن المعجزات..

أيها المسلمون.. وأنتم منبوذون محاصرون في هذا العالم.. ماذا فعلتم للخروج من هذا المأزق..؟! وهل أنشأتم المعابر والجسور كي تعبروا إلى الحضارة..؟! أم أننا ننتظر المهدي كي يضرب بعصاه بحر الجهل المتلاطم.. فينشق عن طريق الخلاص والنجاة..؟! أيها المسلم.. إنك محاصر وملاحق ومنبوذ في كل مكان.. ومع ذلك فإن

(١) راجع الجزء ٢٣ من قصة الحضارة. ويل ديورانت.

إحساسك بالخطر لم يصل إلى الحد الذي يدفعك إلى ترك التنازع مع إخوانك.. والبحث عن المخرج الحقيقي من هذا التيه.. و ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

وما ذنب قومه..؟! أليسوا مغلوبين على أمرهم؟!.

ذنبهم أنهم كانوا مستضعفين له.. لقد ألغوا عقولهم وكيانهم الإنساني.. وارتضوا أن يكونوا أداة في يده.. فكما أنهم انساقوا وراءه في الدنيا.. فليشاركوه مصيره وآخرته.. ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟! قال الذين استكبروا: إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾[2].

إن مسؤولية الهداية فردية أمام الله.. فكيف تتنازل عن تفكيرك لأحد غيرك..؟! إنه المنطقة (الحرام) من نفسك فكيف تسمح للطاغية أن يستبيحها..؟! أو للآباء والأجداد أن تدمغها ببصمتها..؟! ويتحول الخطاب إلى بني إسرائيل عامة.. وهو يلخص لنا حلقات ومشاهد كثيرة من القصة.. تدور كلها حول عطايا الله التي لا تنتهي:

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٧، ٤٨.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ. . . ﴾ :

حيث ذهب موسى لميقات ربه وتلقى الألواح (الشريعة) التي فيها الرحمة والهدى لبني إسرائيل. . (والله أعلم).

﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ[1] ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾.

والطغيان تجاوز الحد. . فإن حرَّمت شيئاً أحله الله فقد تجاوزت حدك ووقعت في الطغيان. وإن جاوزت حد الاعتدال في الاستمتاع بالطيبات وقعت في الإسراف وهو طغيان. . وإن تطاولت على الآخرين بنعمة الله عليك وقعت في الطغيان والاستكبار. . وإن استأثرت بالنعمة وحرمت البائس والفقير وقعت في الطغيان. . فلا تطغوا في رزق الله.

﴿ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ ﴾.

ألا ترون إلى الأمم التي بطرت معيشتها كيف يحل عليها غضب الله. .؟! ولا يغرنكم بقاء كثيرين بدون عقاب. . فإن جرثومة البطر والطغيان تفتك في أعماقهم. . ولا بد أن يأتي اليوم الذي يسقطون فيه ﴿وإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾[2]. . إلاَّ أن يعجلوا في التوبة والتغيير. . ورد الأمور إلى نصابها. .

﴿ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾.

ألم تتساقط المدنيات السابقة بطغيانها كشجرة منخورة اللب

---

(١) المن: حلوى كالعسل. والسلوى طائر السماني.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٩.

اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار..؟! وفي المقابل يفتح الله يديه ليتلقى التائبين.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾..

تأكيدات لطيفة لا بد أن نتأملها قبل أن نمضي.. غفار: صيغة مبالغة من اسم الفاعل (غافر).. فهو دائم المغفرة.. ولكن لمن؟ صفات أربع تحول دون تمييع معنى التوبة.. وتجعل المؤمن لا يستسهل المغفرة فيستهين بالذنوب..

تاب: ندم وعاد عن خطئه..

وآمن بالله إذ لا يكفي ترك الخطأ دون إيمان بالله.

وعمل صالحاً: فإن الحسنات يذهبن السيئات وإن لم نشغل فراغ الذنب بالأعمال الصالحة لم نضمن دوام التوبة. (ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر)..

ثم اهتدى.. فالهداية شرط.. وهي في الوقت نفسه ثمرة لما قبلها: التوبة + الإيمان + العمل الصالح. هكذا توحي لنا (ثم).. والهداية أحلى عطية يستمتع بها الإنسان وقد أصبح في كنف الله.. فماذا يهمه بعذ ذلك؟! لقد اهتدى إلى الطريق الصحيح الذي يخرجه من الظلمات والمتاهات.. لقد عرف كيف يستمتع بدنياه ويزرع لآخرته.. لقد عرف كيف يحقق ذاته.. ويخدم أمته.. ويقدم الهداية والنور للإنسانية.. أولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وينكشف الستار عن لقاء نوراني آخر.. ها هو موسى ينعم بلقاء

ربه وقد جاء لميقاته بعد صيام وقيام وطول تهيء واستعداد. . والله يسأله. . وهو أعلم بحاله. . ولكنه الإيناس.

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ ﴾ . .

فهو الشوق والحب. . والرغبة في الحظوة عند رب الخلق. . يريد أن يسبق الجميع. . لينفرد باللقاء الحبيب. . ويحظى بالسبق إلى رضى الله. . انظر أيها المسلم كيف يفعل الحب بصاحبه. . وابكِ على نفسك. . فلطالما تخاذلنا وتلكأنا. . هل ننتظر أن يسبقنا الجميع حتى نتحرك. . ؟! قيل بأن الذي اخترع (الشطيرة) رجل اسمه (ساندويش) كان مستعجلاً ويريد أن يوفر وقته حتى لا يفوته لعب القمار. . ؟!

فهل تعلَّقنا بالله مثل هذا التعلق. . ؟! ولله المثل الأعلى. . وهو الخير والأبقى. . اللهم أعنا على أنفسنا حتى نعجل إليك. .

ولكن بني إسرائيل كانوا حديثي عهد بعملية التغيير. . ولا بد من أن يُعرَّضوا للفتنة والامتحان حتى تطهر قلوبهم وأفكارهم من دنس العبودية لغير الله. . فإن حياة الاستعباد تخلف في الفكر آفات وأمراض. وجاءتهم الفتنة في غياب موسى كي يعتمدوا على أنفسهم في مواجهتها بعيداً عن دعم النبي القائد.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥ ﴾ . .

لقد انجلى الموقف وعرف موسى أن عملية التغيير لم تتغلغل إلى أعماق قومه بعد. .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ . . . ﴾.

بالنجاة وإهلاك عدوكم وقد رأيتموه. . وبإنزال الألواح والشريعة إليكم في جانب الطور الأيمن.

﴿ . . . أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ. . . ﴾.

وهو تأنيب لهم فما كاد موسى يغيب عنهم حتى سقطوا في الفتنة. .

﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾:

في السرعة إلى ميقات الله. . أو في الاستقامة على التوحيد وعبادة الله. .

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا. . . ﴾:

حقاً إنه اعتذار مليء بالجهل واللف والدوران. . يقولون: إن ما حصل كان فوق طاقتهم وإرادتهم. .

﴿ . . . وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ. . . ﴾.

من الذي حمَّلهم. .؟! يا عبيد المال والذهب والزخرف. . هل أرغمكم قوم فرعون على الاستعارة من حليهم. .؟! إن من لا يقدر على الاعتراف بخطئه يعجز عن التوبة والتصحيح. . إنهم بعد أن انطلقوا ومعهم هذه الحلي المستعارة شعروا بالإثم من حوزتها. . خاصة وأنهم ذاهبون لميقات ربهم فأرادوا أن يتطهروا من وزرها.

فقذفوها كلها في حفرة أضرمت فيها النار ـ هكذا يبدو والله أعلم ـ فجاء السامري ـ لعله منسوب إلى السامرة في فلسطين ـ فألقى هو الآخر ما بيديه عليها.

﴿ . . . فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وكما سيشرح بعد قليل: كان بيده قبضة من أثر الرسول. . هل (الرسول) هو جبريل الذي مشى أمامهم في الطريق الذي انشق عنه البحر. . ؟! أم هو موسى؟! الله أعلم أي ذلك كان. . والله أعلم كيف تم إخراج العجل. .

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ. . . ﴾.

هل صنع فيه ثقوباً معينة تمر بها الريح فيسمع له صوت كالخوار. . ؟! الله أعلم. . كل هذا لا يزيد ولا ينقص من مدلول القصة. . فقد امتحن إيمانهم بالله. . فانكشف ضعفهم وضلالهم. . وتأصل الوثنية والخرافة في أعماقهم. . لقد تأثموا من السرقة وأرادوا أن يتحرروا منها. . فما لبثوا أن وقعوا في الشرك ولم يتأثموا منه. . !

﴿ . . . فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾. .

من هو الذي نسي؟

إما أن بني إسرائيل يتابعون الحديث عن موسى فيقولون عنه أنه ذهب إلى الطور ونسي أن إلهه هنا. . أو أن الحديث عن السامري الذي نسي أنه صنع العجل بيده فسارع إلى عبادته. . والله أعلم. . ويندد الله بغفلتهم:

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ :

لا يرد عليهم إن خاطبوه.

﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) ﴾ :

ما الذي أغراهم بعبادته إذن؟! أهو بريق الذهب..؟! إن البشرية في طفولتها كانت مولعة بالخوارق والتجسيد.. بعيدة عن المنطق العلمي المجرد.. وما أكثر عبيد المادة والذهب حتى يومنا هذا..

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾.

فهو امتحان لإيمانكم فاحذروا.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ :

الذي يحيطكم برحمته ويرعاكم بحنانه.. أنسيتم رحمته وعنايته حين نجاكم..؟!

﴿ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) ﴾.

ولكن عجباً لهم.. إنهم لا يثقون بهارون ولا يهابونه مع أنه النبي الذي استخلفه موسى عليهم..

﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾.

وقد بلغ بهم الأمر إلى حد الولع والعكوف والملازمة.. ومن المؤسف أن نرى بقايا لهذه الوثنية والدجل حتى الآن.. حيث يعكف الناس على قبور وقباب ومشاهد.. ويقصدون المقامات خاشعين

ضارعين.. ويتلمسون الصلبان وآثار الرهبان متبركين متبتلين..!! إن البشرية ما زالت بحاجة إلى نمو ونضج كثير..

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾..

قالها موسى وقد أخذ منه الغضب لله كل مأخذ واندفع بما عرف به من سرعة انفعال في تأديب المخطىء.. فأخذ برأس أخيه وجذبه من لحيته مؤنباً.. ولكن هارون كان له عذره فقد استخلفه أخوه على بني إسرائيل وخاف إن تركهم ولحق بموسى أن يتفرقوا ويختلفوا وربما أدى بهم التفرق إلى الاقتتال.. فاختار أهون الشرين وآثر البقاء معهم ناصحاً محاولاً ردهم إلى الحق بالرفق ليحمي كيانهم ويرأب صدعهم..

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾..

أفلا أنتظرك وقد استخلفتني عليهم؟! وهنا يهدأ موسى أمام حكمة أخيه.. ويتحول إلى محاكمة السامري..

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾..

ما هو الشيء الذي أبصره ولم يبصروه..؟! الله أعلم.. ولكن المهم أن ندرك الفارق بين من كشف أمراً أو قانوناً.. ومن لم يكشفه.. كيف أن الأول يستطيع أن يتلاعب بالثاني بتسخير ما كشف.. ألم تتلاعب الحضارة الغربية بأمم العالم الثالث لأنها

أبصرت ما لم يبصروا وسخرت ما لم يسخروا؟! فلطالما أخرجت لهم عجولاً زائفة في كل مكان.. عكفوا عليها.. وتنافسوا في اقتنائها.. انظر إليهم كيف يقتطعون اللقمة من أفواه أطفالهم ليدفعوا ثمن الأسلحة للعالم الغربي.. كي يقتل بعضهم بعضاً بها..؟!

ويعترف السامري الخبيث بجريمته.

﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ﴾..

ولكن السامري الجديد أشد خبثاً وأكثر إمعاناً في الإضلال والإفساد.. ولن يفتضح أمره ويبطل سحره حتى تنفتح العيون فتبصر ما أبصر وتسخِّر ما سخَّر.. ولكن للهداية والرشاد.. وعندها يصبح السامري منبوذاً لا يقربه أحد[1].. تزدريه الأعين وتشمئز منه النفوس.. ويوأد وهو حي كما عاقب موسى سامري بني إسرائيل.

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾:

ولا يغني ذلك عن عقاب الله المتربص بالمفسدين.

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾:

من لي بضرب الكليم[2]..! لله درك يا موسى.. فكم من عجول ثاوية في جنبات حياتنا.. وكم من أوثان معششة في أفكارنا

---

(١) وهو معنى لا مساس.

(٢) ضرب الكليم: عنوان لأحد دواوين الشاعر محمد إقبال. ويقصد به موسى الذي كان يضرب الصخر فينبجس الماء.. ويضرب الماء فينفلق.

طالما عكفنا عليها حتى شلت حركتنا.. قدمنا لها القرابين من زهرة شبابنا. فمتى نطرح عنا هذه الأوثان ونحرقها وننسفها..؟!

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

وما أجدرنا بالبحث عن التوحيد من جديد.. أجل نحن أمة التوحيد.. فإن الشرك هو الفهم الخاطئ.. لكل شيء.. وكل الأوهام التي تعلقنا بها وعكفنا عليها.. أوثان وعجول..

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾..

وينتج عن علمه الكامل هذا عدل الحساب والجزاء.. فطهروا قلوبكم وجوارحكم فإن الناقد خبير..

● ● ●

٣ - مشهد من القيامة

يعود إلى رسول الله محمد ﷺ معلقاً على القصة.. محذراً مغبة الإعراض.. فلا تبتئس يا محمد ﷺ من إعراضهم فسينالون جزاءهم..

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾:

لترى كيف حكم قانون الله جميع الأمم.. وإن في التاريخ لعبرة عظمى.. وإن الله لم يأمركم بدراسة التاريخ عبثاً ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين...﴾[1].

ولكن الذين ساروا في الأرض ودرسوا التاريخ حتى الآن هم غير المسلمين.. أوليست هذه معصية لأمر الله..؟! وكم كلفتنا هذه المعصية من أثمان باهظة ما زلنا ندفعها بسبب جهلنا.. إن الذي لا يعرف كيف تبدأ الأمور لا يعرف كيف تنتهي.. وإن الذي لا يعرف كيف نشأت الحضارات وكيف سقطت.. لا يعرف كيف يبني أمة وكيف يحميها من السقوط.. وإنني لأتساءل بعجب: هل بين الدعاة

(١) سورة الروم: الآية ٤٢.

إلى إقامة مجتمع إسلامي العدد الكافي الذي تخصص في التاريخ وعلم الاجتماع؟! فكيف توضع خطة بدون دراسة كافية.. وكيف يرسم مخطط البناء من لم يتخصص في هندسة البناء؟! فمن الطبيعي إذن أن نصطدم بالجدران.. ومن البديهي أن تقتلع الريح خيامنا التي توهمنا أنها كافية لإقامة صرح حضارتنا..

عذراً أيها الإخوة الكرام فإن مرارة الأحداث تستوجب المراجعة والبحث عن الخلل.. رغم المحبة والإجلال. وإن النماذج من حولنا تفقأ العين.. فكل من درس السنن وسخر وصل إلى ما يريد.. وليس اليهود والبوذيون بأكرم على الله منا وإنما حصدوا ما زرعوا.. وحتى الآن يقال عنا أننا الشعب الأمي الذي لا يقرأ..

﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) ﴾..

يخرج الإنسان من الغفلة والنسيان. ويذكره بحقائق لو غفل عنها لخسر خسراناً مبيناً.. وفي الأخرة:

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا (١٠٠) ﴾..

ويأتي في هذا اليوم العصيب مثقلاً بالأحمال.. من ذنوب ومظالم يجتاز الصراط بحمله.. فينوء به.. ويلقيه في عذاب جهنم.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا (١٠١) ﴾.

من اقتطع أرضاً لا حق له بها جاء بها يحملها على كاهله.. ومن أضل قوماً وأغراهم بالمعصية.. أو كان لهم قدوة فيها.. جاء

بـوزره وأوزارهم ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقـالاً مع أثقـالهم﴾[1]. دون أن ينقص ذلك من وزر المقلدين المنساقين وراء الآخرين..

أواه.. إن العبء لثقيـل وإن المشهـد لشـديـد. لقـد نفـخ في الصور وحان وقت الحشر..

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾.

زرق الوجوه من الخزي.. ومن العذاب.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾:

الآن يدركون قصـر الحياة الـدنيا.. وقصـر حياة البـرزخ.. أمام طول يوم الحساب وشدته.. ورهبة المـوقف بين يدي الله فـلا يجرؤون على الكلام إلاّ همساً..

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

ولو كان همساً.. فإنه يعلم السر وأخفى..

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

هكذا يقول أفضلهم رأياً..!! فواحسـرتاه.. لقـد تركنـا العاجلة تستغرق جل اهتمامنا ولم نستعد لهذا اليوم الذي ﴿كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[2]..

ويتلفت المحشـورون من حـولهم ذاهلين في أرض المحشـر المستوية المكشوفة.. أما من جبل يختبئون فيه ويركنون إليه؟!

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ١٣.

(٢) سورة المعارج: الآية ٤.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ . .

وهكذا تصبح الأرض واسعة مستوية ملساء.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

ليس فيها منعطف ولا مرتفع.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ .

ولعله نفخة الصور للحساب التي يسمعها الجميع فلا تغيب على أحد ولا تبددها المنعطفات. .

﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ . .

ورغم رهبة الموقف فإنك بين يدي الرحمن. . ويكرر اسمه الحبيب مرة أخرى.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ .

أسمعت أيها العبد المسكين الذي يهرب من ربه ومن شريعة ربه. . ؟! إنك تهرب من الرحمن (وهو اسم شامل لكل أنواع الرحمة). . فإلى أين. . ؟!

إنه الرحمن في ذلك الموقف العصيب. . ففروا إلى الله. . إنه الرحمن الذي أنزل من رحمته جزءاً واحداً إلى الأرض يتراحم به الخلق. . وادخر لعباده تسعاً وتسعين جزءاً ليرحمهم بها في هذا الموقف. . ولا عجب فإنه الرحمن. . !!

رباه. . غفرانك. . وهل أقول غفرانك لأن محبتك في قلبي قد

غلبت مخافتك..؟! هل أتجاوز حدي في الطمع حين أذكر قولك في الحديث القدسي «أنا عند ظن عبدي بي»؟! اللهم إني على يقين من أنك الرحمن.. فأظلني في كنفك يا رحمن..

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ﴾:

ومن يجرؤ على الكلام إن لم يأذن له الرحمن..؟ فمهابته تملأ القلوب وتلجم اللسان..

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾: من نبي أو شهيد أو صدِّيق.. فهؤلاء تنحل عقدة لسانهم حين يتلقون إشارة الرضى.. وإن الله يريد أن يكرمهم بالشفاعة لمن يستحق العفو من عباده.. وليست هذه الشفاعة لنقص في علم الله بأحوال عباده وجدارتهم بالعفو بل هي كرامة لأوليائه وأصفيائه من خلقه اختصهم بها في الآخرة من دون سائر الناس..

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾:

حاضرهم ومستقبلهم وماضيهم.. وما قاموا به من عمل وما أعرضوا عنه وتركوه خلفهم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

وعقولنا ليست مهيأة للإحاطة بالله وماهية صفاته.. فكفانا تنازعاً في هذا المجال.. ويكفينا أن نؤمن أنه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].. ويكفينا أن نحس برقابته.. وتنبض قلوبنا

---

(1) سورة الشورى: الآية ١١.

بمحبته.. ورحم الله من قال (كل ما خطر ببالك فالله غير ذلك). وتفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته.. لأن هذا ضياع للوقت والجهد بدون طائل..

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾:

ذلت واستسلمت.. ومع ذلك أحس بأن الكلمة (عنت) أعمق من ذلك..؟!

والحي القيوم هو اسم الله الأعظم.. فله الحياة الدائمة والقيام الدائم على شؤون خلقه.. فكل حي يستمد منه حياته.. ولا قيام لشيء في السموات والأرض إلاَّ وهو مستمد من قيامه.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾..

والظلم ظلمان: ظلم الكفر والشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[1] بحق الله وبحق نفسك.. إذ تحرمها من لذة الصلة بخالقها ورحمة الحياة في ظل شريعته. وظلم بحق العباد وهو لا يغفر ولا بد من تصفية الحساب فيه في يوم لا درهم فيه ولا دينار وإنما المقاضاة بالحسنات والسيئات.. هل تذكرون حديث المفلس..؟! فإياكم والظلم.. وفي المقابل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

فلا بد من الشرطين معاً: الإيمان والعمل.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾:

فلن يظلم من عمله مثقال ذرة.. بل إن الله يعده بالأجر المضاعف..

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٣.

٤ - تعقيبات فيها تذكير بقصة آدم

ويعقب على المشهد السابق بأن الله من رحمته بعباده أنزل لهم هذا القرآن بيناً بلغتهم وحذرهم من سوء المصير لعلهم يتقون عذاب الدنيا والآخرة. .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾.

والقرآن مصدر من القراءة. . فهو يقرأ باستمرار وحتى في إذاعات غير إسلامية فسبحان الله. . !! وكونه نزل عربياً فيه بلاغة اللغة العربية ومعجزاً للعرب في بنيانه وتبيانه ومعانيه. . كونه نزل عربياً لا يمنع من ترجمته إلى لغات العالم. . بل لا بد من ذلك لتبليغ الرسالة العالمية التي ختمت بها الأديان.

﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾.

فالحديث في القرآن عن العواقب منوع بأساليب مختلفة ومواضيع شتى. . فأحياناً يتحدث عن مصارع المكذبين السابقين. . وأحياناً يحض الإنسان على مراقبة النتائج الوخيمة لأعماله. . وكثيراً ما يعرض مشاهد من الآخرة فيها من الوعيد ما يردع.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ :

سوء المصير.

﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ :

يخرجهم من سبات الغفلة.

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ :

فهو الملك العادل الذي لا يرضى أن يؤخذ عباده بظلم وهم غافلون..

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾.

فلقد كان النبي ﷺ يرهق نفسه حرصاً على القرآن.. فيتعجل القراءة خلف جبريل حين يأتيه بالوحي خوفاً من أن ينسى الآيات. فيطمئنه الله ويثبت روعه ويوجهه إلى طلب المزيد.

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾..

فإن الله لا يخيب رجاءك.

زدني علماً.. كلمة ضخمة. وفي الوقت الذي يستزيد الناس فيه من المال والولد والجاه والسلطان.. فإن ذلك كله عرض زائل أمام العلم.. أتذكر قول علي (رضي الله عنه) (العلم خير لك من المال.. العلم يحفظك وأنت تحفظ المال.. والعلم يزكو بالإنفاق والمال تنقصه النفقة...). أمامي الآن بعض الكتب في التربية من سلسلة اتخذت لنفسها عنواناً جامعاً (زدني علماً) (منشورات عويدات بيروت –

باريس). . أليس عجيباً أن يُسْبَق المسلم إلى مثل هذا العمل. .؟!

وإذا كان رسول الله ﷺ الـذي يتلقى وحي ربه ويعـطى العلم من لـدنه. . يُـوجَّه ﴿وقـل رب زدني علماً﴾ فمـا حـالنـا نحن. .؟! وكيف ينبغي أن نـطلب العلم ونستـزيـد. .؟! والمسلم يـردد: «طلب العلم فـريضة على كـل مسلم» كشعار. . لكنـه لا يدرك أن هـذا يتطلب منـه تخصيص ساعات يومية لأداء هـذه الفريضـة. . ترى هـل نحس بالإثم لو فاتنا طلب العلم اليومي كما نحس بالإثم إن فـاتنا وقت الصـلاة.؟! ثم إننـا نقصر العلم على العلوم الشـرعية. . فهي وحـدهـا التي تعتبـر فريضة. .!! فـإذا كان العلم هـو دراسة آيـات الله وكشف سننه. . فمـا الفـرق بين آيات الله في الكتـاب. . وآيـاتـه في الآفـاق والأنفس. .؟! أليست كلها آيات الله. .؟!

بـل إن آيـات الله في الآفـاق والأنفس هي التي ستشهـد لآيـات الكتاب بأنها الحق ﴿سنريهم آيـاتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

ومـا بالنـا نعيب على العالم الغـربـي فصله الـدين عن العلم. . ومـواقف الكنيسـة التي أدت إلى الصـراع بين الـدين والعلم. . فلمـا انتصـر العلم أزيـح الـدين جـانبـاً. . لأن العلم معـرفـة تؤدي إلى التسخير. . فإن تصدى له الدين أصبح خـرافة لا بـد أن تزاح. . أقـول ما بالنا نعيب عليهم ذلك ونردد: (الإسلام دين العلم). . ثم نضمر في

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

أعماقنا عداء للعلم وخوفاً لا شعورياً منه..؟! لقد تعجب ديورانت ـ صاحب قصة الحضارة ـ من حرص النبي محمد ﷺ على العلم وحثه لأصحابه على طلبه.. فهو ـ محمد ﷺ ـ برأي ديورانت: الوحيد من بين المصلحين الدينيين الذي اهتم بالعلم وأعطى له هذه المكانة.. وعلينا أن نتعجب أكثر من حالنا ونحن ندعي أننا أتباع محمد ﷺ ونقول: رب زدني من كل شيء.. إلاّ العلم..!! ولسان الحال أبلغ من المقال.

ويأتي التذكير السريع بقصة آدم كي نحذر التراخي والضعف في حمل الأمانة.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

وآدم رمز لكل البشر.. وقصته توضح مواطن الضعف والقوة في الشخصية الإنسانية. فهو يضعف وينسى ويتراخى.. لكنه قوي في مواجهة خطئه.. قادر على التوبة والتصحيح يقوم من عثرته ويرفع رأسه إلى ربه.. ويتصدى للشيطان ووسوسته.. وقد بدأت الآيات بالموجز.. ثم جاء تفصيل سريع..

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾:

تكريماً لما أعطي من قدرات ومواهب لم تعط للملائكة.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

أن يعترف بتفوق آدم..

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾:

هـل تجد أروع من هـذا الإيجاز في عـرض القصـة..؟! هـل تستطيع حذف كلمة واحدة دون أن يختل المعنى..؟! أمـا الجنة التي أسكن فيهـا آدم.. فهـل هي جنـة خلد؟ أم أنهـا بستـان غني حـافـل بالثمار؟ بعضهم فضل الرأي الثاني لأن جنة الخلد لا توجد فيهـا شجرة محرمة.. والله أعلم.. وكونه عبر عن الخروج منهـا بأنـه شقاء.. قـد يعني الكد والسعي في تحصيل الرزق.. وقد يعني الشقاء بمعصية الله وتوقع غضبه..

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ [1] ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقد دخل الشيطان إلى آدم من مواضع الضعف فيه.. فهو يحب الخلد ويكره الموت.. ويطمع في ملك دائم..

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ [2] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ [3] رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

وذلك عندما قام آدم من عثرته وتوجه تائباً إلى ربه..

القصة يمكن أن تفهم بكل بساطة.. ويعتبر بها كل إنسان مهمـا كـان بسيط المدارك قليـل العلم.. ولكنها قـابلة أيضاً لأن يكتب فيهـا

(١) أي لا يصيبك حر الشمس بالأذى.

(٢) أخذا يلصقان.

(٣) اختاره.

فهم جديد.. فقد ينظر إليها بعضهم على أنها ترمز إلى المراحل التي تطورت فيها الحياة الإنسانية.. منَ الحياة البدائية واشتراك الجميع في كل شيء.. إلى مرحلة الزراعة وظهور الملكية والقوانين (الشجرة المحرمة) ـ إلى ظهور العدوان بين البشر وانكشاف سوآت الإنسان.. إلى مرحلة الخجل من العري والبحث عن اللباس.. وقد تبدو هذه التأويلات بعيدة لكثير من المسلمين.. ولكن لا حرج.. فليتأمل كل إنسان.. وليفهم على ضوء علمه طالما أن فهمه لا يتضارب مع مقاصد الشريعة.. ومما لا شك فيه أن القرآن قابل للتأويل.. ويستعمل الأسلوب الرمزي للإيحاء والتأثير.. ـ وكانت الرمزية من بلاغة العرب ـ وفيه آيات لا يمكن فهمها حرفياً مثل قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة...﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان...﴾[2]. وقوله: ﴿تجري بأعيننا﴾[3].

ولا نريد أن نقع في الخطأ الذي وقع فيه رجال الكنيسة حين أصروا على الفهم الحرفي لنصوص كتابهم المقدس.. فوقفوا في وجه غاليلو وكوبرنيك وأبحاثهم العلمية.. لأن يوشع ـ في كتابهم ـ قال للشمس قفي.. ولو كانت الأرض هي التي تدور لقال للأرض قفي!! وقدموا غاليلو إلى المحاكمة واضطروه أن يتراجع عن بحثه العلمي

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٣) سورة القمر: الآية ١٤.

حول دوران الأرض.. ولو أصر لأحرق بتهمة الهرطقة.. مما أدى بعد ذلك إلى نشوب الصراع بين العلم والدين.. ثم إلى نبذ الدين.. لأن حقائق العلم كان يبرهن عليها بالتسخير.. وكل ذلك لأن رجال الدين جعلوا فهمهم للنصوص مقدساً ولم يقولوا: هكذا نحن فهمنا.. ويمكن أن يفهم غيرنا غير ذلك.. وتشبثهم بالمعنى الحرفي للنصوص.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾:

كأنه يخاطب البشرية كلها في شخص آدم وحواء «جميعاً».. أو أنها إشارة إلى هبوط إبليس أيضاً.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾:

فقد بدأ الصراع بين آدم وإبليس.. بين الحق والباطل..

ويعد الله بأن لا يتخلى عن هذا الإنسان في هذا الصراع.. بل سيرسل له الهدى ليكشف له الطريق ويحصنه في مواجهة الشياطين. فما أعظم رحمة الله بعباده..

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

وإن ضلالنا وشقاءنا في عالمنا الإسلامي لدليل واضح على أننا لم نتبع الهدى.. بينما كانت الأمة التي أنشأها محمد ﷺ خير أمة.. أخرجت حضارة للعالم سعد في ظلها حتى من لم يدينوا دينها..

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1].

---

(١) ضيقة وشديدة.

ومن الواضح أن الآية لا تعني التضييق في الرزق.. فإن للرزق سنناً وأسباباً من قام بها وصل.. ولكن للنفوس أيضاً سنن.. فإن هناء النفس له أسباب وشروط.. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]، ويذكرني هذا بقول أحد أساطين المسيحية أوغسطين: (لقد خلقتنا يا رب لنفسك ولن تعرف قلوبنا الراحة حتى تستريح لديك).. وما قيمة المال والرزق إن لم يكن القلب سعيداً والنفس مطمئنة إلى ربها..؟! ولعل الحياة البشرية لم تزدحم بالأمراض النفسية كما ازدحمت بها الآن.. ويبدو الإنسان في جنبات الأرض وكأنه هارب من كل شيء حتى من نفسه التي بين جنبيه.. صحيح أننا في عصر العلم.. ولكننا أيضاً في عصر المخدرات.. والقلق والأمراض النفسية والانتحار والتفنن في الإجرام مما يدل على أن العلم لا يزال في بداياته وخاصة في ميدان الأنفس.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

لقد كانت الآيات أمام عينيك فعميت عن رؤيتها.. فكنت أعمى البصيرة.. لقد أنعم الله عليك بنعمة البصر فلم تستفد منها وحرمت نفسك من بركاتها في الدنيا.. واليوم تحرم من هذا البصر.. فالجزاء من نوع العمل.. ويبعث الإنسان على ما مات عليه.

يا للأسى..!! ويا لبؤسك أيها الإنسان..!! فلطالما هتفت بك

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

الآيـات في الدنيـا ﴿ألم تـر. .﴾؟! ﴿ألم نجعـل لـه عينين؟! ولسـانـاً وشفتين؟! وهـدينـاه النجـدين؟!﴾[1]، ولكن الغفلة تعـطل الـطاقـات والمواهب. . ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمـرون عليها وهم عنها معرضون﴾[2]. وكم حرم الإنسان نفسه من فـوائد ومنـافع بغفلتـه عن آيات الله. . ألا ترى أننـا الآن بدأنـا ننتبه إلى بعض منـافع الـطاقة الشمسية؟! ولم يُكتشف الطيران إلاَّ في القرن الآخيـر مع وجـود النداء الـرباني الـذي طالمـا ردده المسلمـون ﴿أولم يـروا إلى الـطير فـوقهم صـافات ويقبضن مـا يمسكهن إلاَّ الـرحمن؟!﴾[3]. ولم ينعم الإنسـان بفوائد الطباعة إلاَّ منذ قرابة أربعمائة عـام مع أن مبـدأها كـان موجـوداً منذ القدم في ختم الرسائل بالخاتم. .

والخطاب لك أيها المسلم قبل غيرك **﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾**. .

ماذا فعلت بآيات الله أيها المسلم. .؟!

هـل حفظت فلم تنس؟! وإن المعنى القـريب يفيد الـوعيـد لمن حفظ آيات ثم نسيها. . هل حفظت اللفظ ولم تنس المعنى في حياتك العملية في بيتك وعملك وسائر جوانب حياتك. .؟!

أيهـا المسلم. . لقد جـاءتك آيـات الله. . ووصلت إليك مصـانة

(١) سورة البلد: الآية ٨.
(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٥.
(٣) سورة تبارك: الآية ١٩.

من أي تبديل أو ضياع.. فماذا فعلت بها؟! لا أريد أن أبخس مدارس (تحفيظ القرآن) في عالمنا.. ولكن بالله عليكم قارنوا بين الصورة التي نحن عليها وحياة الصحابة.. قارنوا بين عدد من يحفظون كتاب الله في عالمنا.. وعدد من كان يحفظه من الصحابة.. وبين حالنا بين الأمم في عالمنا المعاصر.. وحال الصحابة في عالمهم الفذ الذي بنوه بأيديهم..!! عند ذلك يتبين معنى «فنسيتها».. والوعيد يتوجه للمسلمين قبل غيرهم ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾:

أسرف في الغفلة.. أسرف في الانكباب على شهواته.. ولو كان يؤمن حقاً بآيات ربه لما فرط فيها.. بل كان يأخذها بقوة.. ولا عبرة بدعاوي اللسان.. فلسان الحال أصدق من المقال. وكما قال أحدهم: «إن شدة صياح أعمالك حالت دون سماع أقوالك».

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾..

«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب»[1]..

أسمعت يا فرعون؟! أعلمتم يا عبيد الفراعنة..؟!

• • •

(١) رواه مسلم.

٥ - خِتَام السُّورَة

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾؟!

أولم يكن لهم هداية في عِبَر التاريخ وأخبار الأمم السابقة وكيف هلكت. . ؟! إن الله لم يدع فرصة للهداية إلاَّ ومنحكموها. . وهذا تاريخ الأمم بين أيديكم. . خبرات جاهزة لو درستموها لجنبتكم كثيراً من المزالق والنكبات. . ولكن الغافلين يصرون على أنهم خلق فريد. . ويريدون أن يجربوا من جديد. . هل نسوا أن أجل الإنسان أقصر من أن يجرب من جديد. . هل أفلت أحد ممن سبقهم من أجله. . ؟! كيف غفلوا عن ذلك وهم «يمشون في مساكنهم» ويتأملون آثارهم. . ؟!

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ ﴾:

إنها دلائل وعلامات. . ولكن لا يبصرها وينتفع بها إلاَّ أصحاب العقول. .

﴿ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾:

لولا أن ربك يا محمد ﷺ قد أعطى وعداً بتأجيل الحساب إلى الآخرة لكان هلاكهم أمراً لازماً محققاً. . وسيأتيهم الموت الذي حدد الله موعده لكل مخلوق في الدنيا وعندها تفوت الفرصة وينقطع العمل. . وهكذا أحس بأن في الآية فعلاً محذوفاً يقدر بـ (سيأتيهم) أجل مسمى. . لأن «أجلٌ» ليست معطوفة على «لزاماً» أو نعتبر «أجلٌ مسمى» معطوفة على «كلمةٌ» ويكون أصل الكلام: لولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمى لكان العذاب لزاماً. . ولكن عجل بجواب (لولا) إشعاراً بقرب العذاب. والله أعلم. . فلا يحزنك تكذيبهم وما يتهمونك به من سحر أو جنون.

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾:

والصبر إمساك النفس وإلزامها بالثبات على العمل أو الأمر. . بحيث لا تنشغل عنه بالانفعال أو المهاترة. . ولا تتركه يأساً. .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾:

كأنها إشارة إلى مواقيت الصلاة. ومثل قوله: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وإن في الصلاة لعوناً كبيراً. . وإن فيها لغذاءً للنفس. . وإن صلتك بالله بالصلاة أو الذكر. . تذهب عنك كل كرب. . وتنسيك إعراضهم وأذاهم. . وتمنحك الرضى. .

﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾:

والتسبيح في اللغة تنزيه الله تعالى عن أي عيب أو نقص. . وفي السنة جاءت كلمة (سبِّح) بمعنى صلى النوافل. . وإن لله أوقاتاً خصها

بالتشريف لما يحصل فيها من خشوع وقبول.. ولما تدل عليه من صدق توجه العبد إلى ربه وإيثاره قربه على أي عرض من الدنيا..

﴿قبل طلوع الشمس﴾: والفجر يتنفس ويتمطى ليخرج من هجعته.. إلى حيوية النهار وصخبه..

﴿وقبل غروبها﴾: وجمال المشهد وروعته تفعم قلب المؤمن وتدفع لسانه لأن يلهج بذكر الله..

﴿ومن آناء الليل فسبح﴾: حيث تركن النفس إلى هدأته.. وتهفو الأجسام إلى لين المضجع وسكينة النوم.. ولكن المؤمنين تتجافى جنوبهم عن المضاجع..

﴿وأطراف النهار﴾: حين يضرب الناس في مناكب الأرض ويتهافتون على الرزق. ولكن المؤمنين يتركون البيع والرزق إن سمعوا النداء.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح..

كل هذا من أجلك أيها الإنسان لعلك ترضى.. «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».. وحتى الصلاة التي هي لله.. إنما هي من أجلك أيها الإنسان.. تمنحك السكينة والرضى وتعينك على تحمل أعباء الحياة..

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

الكلام لرسول الله ﷺ، والمقصود به الدعاة والمؤمنون في كل زمان ومكان.. على طريقة (إياك أعني واسمعي يا جارة). ومع ذلك فالنبي ﷺ بشر.. تهفو نفسه إلى ما في الحياة من جمال وتنعم (زهرة الحياة الدنيا).. ومع ذلك يتسامى ويؤثر الآخرة ولو لم يكن كذلك

لانقطعت الحبال بيننا وبينه.. وتعطلت القدوة به..

صلوات الله عليك وسلامه يا رسول الله.. لقد كان لك قلب ينبض بالحياة.. ونفس تدرك متاع الحياة.. ومع ذلك جاهدت وكابدت وبلغت الدعوة وتحملت الأذى وقمت من الليل وتهجدت.. وآثرت الكفاف في عيشك.. وآثرت الرفيق الأعلى على خزائن الأرض.. لقد كنت على يقين مما هو خير وأبقى..

﴿**لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم**﴾.. فهي القناعة والرضى.. وهي طهارة القلب من الحسد والغل.. وانتبه واحذر فإن المتاع فتنة واختبار﴿**لنفتنهم فيه**﴾.. هل يشغلهم عن ذكر الله وأداء الأمانة التي كلفهم الله..؟

هل يؤدون شكره أم يودي بهم إلى البطر والغفلة..؟ وكم من نعمة انقلبت نقمة على أصحابها لأنها طغت عليهم واستهلكتهم حتى تاهوا عن ربهم.. أيها المؤمن.. أيها الداعي.. قليل يكفيك خير من كثير يلهيك.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾:

في الآخرة وفي الدنيا فإن عطاء الله لقلبك ونفسك من الرضى والسكينة خير وأبقى.. وعطاء الله لعباده المؤمنين في الدنيا طيب وكثير وكبير.. منه هناء النفس ومنه التمتع ببركة الحلال.. ومنه محبة الناس واحترامهم.. ومنه الثناء الحسن والسيرة العطرة. ومنه نعمة الذكر والشكر.. ومنه وأحلى شيء فيه: لذة الصلة بالله ومناجاته.. كل هذا خير وأبقى من اللذات العابرة الزائلة.. وقد سبق أن أدرك سحرة فرعون عند إيمانهم هذه الحقيقة الكبرى حين قالوا: ﴿والله خير

وأبقى﴾.. ولو بحث الناس عن مصالحهم بشكل موضوعي.. ولو درسوا النتائج والعواقب ليختاروا المنهج الذي يحقق الخير والأبقى لأكثر الناس لرجعوا إلى الله.. وأدركوا سر شريعته واستمتعوا بالحياة في ظل عرشه..

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾:

فهي المسؤولية الكاملة عن الأسرة.. وكلكم راع ومسؤول عن رعيته. ولكن كيف يأمر..؟ إن هذا قابل للتوسع.. وأساليب الأمر والترغيب الآن عديدة.. ولكن المسلم مع الأسف يكتفي بإصدار الأوامر افعل.. ولا تفعل.. وليس أثقل على النفس من تلقي الأوامر.. وكان يمكن أن نسخر وسائل الإعلام لترسيخ الخير في النفوس وتعليقها بالصلاة.. ولكننا نكتفي بالتنديد بوسائل الإعلام لأنها نجحت في الترويج للمعاصي.

﴿**واصطبر عليها**﴾ على المداومة على الصلاة فلا يشغلك شاغل عن أوقاتها الخمسة.. أو اصبر على هذه الوصية بدوام تعهد الأهل.. أو اصبر على هذه الوصايا كلها.. أو اصبر على هذه الدعوة وتكاليفها.

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾:

فلا تنشغل بالسعي للرزق عن هذه الأمور الأساسية التي خلق الله الإنسان والحياة من أجلها.. ويدعم هذا المعنى تتمة الآية ﴿نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾.. انتبه فالعاقبة ليست للأغنى وإنما للأكثر تقى.. فكيف تكرس معظم الوقت لتحصل مزيد من المال وتفرط في تحصيل التقوى.. وفي استنفار الذكاء والوقت لحث الأهل على

التقـوى. . ؟! أو ﴿لا نسألـك رزقاً﴾ بمعنى أنـك لن تنفع الله بصـلاتك وصلاة أهلك. . وإنما ذلك لسعادتك ومصلحتك.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾: فالله يرعاك ويحرص على مـا ينفعك ويـدلك على مـا فيه خيـرك ورزقك. .

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾: النتيجة الأخيرة أن الفوز للتقوى.

وبعـد كل ذلـك. . ومع وجـود كل هـذه الآيات. . فـإن العميان لا يبصرون. . وما زالوا لنبيهم يتنكرون. . !!

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

كـانوا يـطلبـون معجـزة. . ولكن الله لا يـريـد أن يقهـر عقـولهم بالمعجزات. . لقد آن للبشرية أن تنضج. . وينبغي أن تتعلم كيف تقرأ وتفكر وتناقش الأدلة لتصل إلى الحق. . والخـوارق لا تجدي. . لأنهـا قد تضغط على الضمير برهة لكنهـا لا تعطي اليقين والقنـاعة. . ولهـذا فقد انتهى زمن المعجزات بمجيء ختام الرسالات. ﴿أو لم تأتهم بينـة مـا في الصحف الأولى﴾ أو لم يتبين لهم ما حصـل بـالأقـوام المـاضيـة الـذين جـاءتهم الصحف الأولى فـطلبـوا المعجـزات. . فلمـا جـاءتهم لم يؤمنوا. . ونالهم عقـاب الله. أو أن المعنى: أو لم تأت آيـات القرآن بينات توافق مـا جاء في الصحف الأولى وتـدعمها. . ؟ إن الأسس التي دعا إليها القرآن هي نفس ما دعت إليه الديـانات السمـاوية السـابقة. . وهذا برهان على أنها من مصدر واحد.

ولقـد تلطف الله بعباده ومنحهم كـل الفـرص الممكنـة للهـدايـة ولم يعجل بعقابهم إلاّ بعد أن أرسل من ينذرهم.

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ :

وإن للمعصية لذلاً وخزياً . . وإن عواقبها أشد ذلاً وخزياً . . هل رأيتم إنساناً ربح محبة القلوب واحترامها بارتكاب المعاصي؟! قد تهواه بعض النفوس الوضيعة . . لكنه خسيس في نظر كل من يملك مسكة عقل . .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ :

انتظروا فستحكم العواقب والنتائج . . وستقدم شهادتها لأصحاب المنهج الصحيح السوي .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾ :

الذي يوصل إلى أفضل هدف بأقل وقت وجهد ممكن .

﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

انتظروا فعما قليل ينجلي الموقف ويظهر المهتدون الفائزون بقصب السبق في مباراة الحياة . . ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾(١) إنه التحدي العلمي الذي لا يستطيع أن يرفضه عاقل . .

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ولقد وجد المشركون السابقون ما وعدهم ربهم . .

وقف رسول الله ﷺ على قتلى المشركين يوم بدر وقد سحبوا إلى القليب . . وناداهم بأسمائهم وقال :

«فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»؟(٢) .

---

(١) سورة تبارك: الآية ٢ .

(٢) رواه البخاري .

ولقد أطلعنا التاريخ على النتائج.. ورأينا من هم أصحاب الصراط السوي.. المهتدون الذين حملوا مشاعل النور إلى العالم.. والآن.. إن التاريخ متربص يمسك أنفاسه.. قد آلمه انتفاش الباطل وبغي أصحابه في جنبات الأرض.. آلمته صيحات المستضعفين والمظلومين الذين داستهم حضارة المادة.. التي انطلقت تتبجح في الأرض كما تبجح فرعون من قبل ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.. ﴿لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم﴾..

إن العالم قد انتكس إلى منطق فرعون وقيمه.. ولن يتغير الحال إلَّا بظهور النخبة الجديدة المؤمنة التي تعلن رفضها لمنطق فرعون ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا﴾ ولو تعرضت للاضطهاد والقتل.. إن صرح فرعون المبني على قانون الغاب لن ينهار حتى يدرك المستضعفون سر كلمة (لا) في عقيدة التوحيد (لا إله إلَّا الله) ــ إن هذه الكلمة البسيطة تدك كيان الطواغيت ــ من أجل ذلك كانت منها البداية في مكة ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ وإن الاستكبار لينهار حين يرفض الضعيف طاعته.

إن التاريخ يتطلع نحو بصيص أمل ينبثق من أعماق العالم الإسلامي ليبرهن من جديد أن الله خير وأبقى..

شعبان ١٤١٢هـ/ شباط ١٩٩٢م

● ● ●